بسم الله الرحمن الرحيم

أشـــــراط

الســـــاعة الكبـــرى

الشيخ

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع رياض المتقين

www.almotaqeen.net

القناة العلمية على التلجرام

https://t.me/aloheemeed

.

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ قَالَ (اطَّلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ فَقَالَ «مَا تَذَاكَرُونَ» قَالُوا نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ» فَذَكَرَ الدُّخَانَ وَالدَّجَّالَ وَالدَّابَّةَ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَثَلاَثَةَ خُسُوفٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ) .

==========

١-ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث علامات الساعة الكبرى .

فإن علامات الساعة : هي التي تسبق وقوع القيامة وتدل على قرب حصولها تنقسم إلى قسمين :

كبرى : وهي أمور عظيمة يدل ظهورها على قرب القيامة وبقاء زمن قصير لوقوع ذلك اليوم العظيم.

صغرى : وهي – في الغالب – تتقدم حصول القيامة بمدة طويلة، ومنها ما وقع وانقضى – وقد يتكرر وقوعه – ومنها ما ظهر ولا يزال يظهر ويتتابع، ومنها ما لم يقع إلى الآن، ولكنه سيقع كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ .

وقوله (لن تقوم الساعة) المراد بها القيامة .

فالساعة عند الإطلاق يراد بها يوم القيامة، لأن الساعة تطلق على عدة إطلاقات:

الإطلاق الأول: القيامة.

كقوله تعالى (اقتربت الساعة).

وقوله تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ).

الإطلاق الثاني: موت الإنسان.

فمن مات فقد قامت قيامته، لدخوله عالم البرزخ الذي هو أول عوالم الآخرة.

الإطلاق الثالث: تطلق أحياناً ويراد بها موت أهل القرن.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ (كَانَ الأَعْرَابُ إِذَا قَدِمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَأَلُوهُ عَنِ السَّاعَةِ مَتَى السَّاعَةُ فَنَظَرَ إِلَى أَحْدَثِ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ فَقَالَ: إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ) أي: موتهم ، والمراد ساعة المخاطبين.

وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة، أو لأن حساب الخلق يقضي فيها في ساعة واحدة فسمي بالساعة لهذا السبب أو لأنها على طولها كساعة واحدة عند الخلق.

وإذا أطلقت الساعة في القرآن ، فالمراد بها القيامة الكبرى.

كقوله تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ) .

وكقوله تعالى (يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ) وكقوله تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ).

٢-أول هذه العلامات الكبرى : الدُّخَانَ .

الحديث دليل على أن من علامات الساعة الكبرى : الدخان .

ومن الأدلة :

قال الله تعالى (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

والمعنى: انتظر يا محمّد بهؤلاء الكفار يوم تأتي السَّماء بدخان مبينٍ واضحٍ يغشى النَّاس ويعمُّهم، وعند ذلك يُقال لهم: هذا عذابٌ أليمٌ؛ تقريعًا لهم وتوبيخًا، أو يقول بعضهم لبعض ذلك.

وفي المراد بهذا الدُّخان؟ وهل وقع؟ أو هو من الآيات المرتقبة؟ قولان للعلّماء:

القول الأول: أن الدخان مضى وانقضى، وهو ما أصاب مشركي مكة من الجهد والجوع حتي أصبح أحدهم إذا نظر إلى السماء يرى كهيئة الدخان.

وعلى رأس القائلين بِهذا ابن مسعود ﷺ .

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ (كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ جُلُوسًا وَهُوَ مُضْطَجِعٌ بَيْنَنَا فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّ قَاصًّا عِنْدَ أَبْوَابِ كِنْدَةَ يَقُصُّ وَيَزْعُمُ أَنَّ آيَةَ الدُّخَانِ تَجِيءُ فَتَأْخُذُ بِأَنْفَاسِ الْكُفَّارِ وَيَأْخُذُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَامِ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَجَلَسَ وَهُوَ غَضْبَانُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بِمَا يَعْلَمُ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَلْيَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ لأَحَدِكُمْ أَنْ يَقُولَ لِمَا لاَ يَعْلَمُ اللَّهُ أَعْلَمُ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ) إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا رَأَى مِنَ النَّاسِ إِدْبَارًا فَقَالَ «اللَّهُمَّ سَبْعٌ كَسَبْعِ يُوسُفَ» قَالَ فَأَخَذَتْهُمْ سَنَةٌ حَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى أَكَلُوا الْجُلُودَ وَالْمَيْتَةَ مِنَ الْجُوعِ وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ أَحَدُهُمْ فَيَرَى كَهَيْئَةِ الدُّخَانِ فَأَتَاهُ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ جِئْتَ تَأْمُرُ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَبِصِلَةِ الرَّحِمِ وَإِنَّ قَوْمَكَ قَدْ هَلَكُوا فَادْعُ اللَّهَ لَهُمْ – قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) إِلَى قَوْلِهِ (إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) قَالَ أَفَيُكْشَفُ عَذَابُ الآخِرَةِ (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ) فَالْبَطْشَةُ يَوْمَ بَدْرٍ وَقَدْ مَضَتْ آيَةُ الدُّخَانِ) متفق عليه .

وتبعه على ذلك جماعة من السلف منهم أبو العالية، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، والضحاك، وعطية العوفي.

ليس لهؤلاء ما يستدلون به سوى الآيات في سورة الدخان فقالوا: إن سياق الآيات يدل على أن المراد بِها ما أصاب مشركي مكة عندما دعا عليهم الرسول ﷺ .

وبِهذا جزم ابن مسعود ﷺ كما في الحديث السابق – وغضب واشتد نكيره على من قال بخلاف هذا، وقال ﷺ مستنكرًا: "أفيُكشف عذاب الآخرة" أي إن كشف العذاب ثم عودهم لما هم عليه لا يكون في الآخرة وإنما يكون في الدنيا.

وعلى هذا القول: يكون معني قوله تعالى حكاية عن المشركين (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ) أن الكافرين الذين أصابَهم ذلك الْجهد والجوع يدعون ربِّهم أن يكشفه عنهم ويقولون: إنك إن كشفته عنا آمنا بك وعبدناك، فيرد الله تعالى عليهم بقوله (إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) أي إنكم أيها المشركون إذا كشفت عنكم ما بكم من ضر عدتم إلى ضلالكم وغيّكم.

كما أنه على هذا القول يكون المراد بالبطشة الكبرى في قوله تعالى (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ) بطشة الله تعالى بمشركي قريش يوم بدر كما ذهب إلى ذلك ابن مسعود رضي الله عنه، وهو قول جماعة من السلف كابن عباس وأبي بن كعب رضي الله عنهم ومسروق ومجاهد وأبي العالية والضحاك وغيرهم.

القول الثاني: أنها لم تأت بعد وهي من علامات الساعة الكبرى.

وهذا مروي عن ابن عباس وابن عمر وعلي بن أبي طالب وأبي هريرة وحذيفة ﷺ والحسن وابن أبي مليكة.

ورجح هذا القول: القرطبي، وابن القيم، وانتصر له ابن كثير، كما ذهب إليه صلاح الدين العلائي وجمعٌ من أهل العلم عليهم رحمة الله.

أ–لحديث الباب (إنَّها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات فذكر الدخان) .

قال النووي: هَذَا الْحَدِيث يُؤَيِّد قَوْل مَنْ قَالَ إِنَّ الدُّخَان دُخَان يَأْخُذ بِأَنْفَاسِ الْكُفَّار، وَيَأْخُذ الْمُؤْمِن مِنْهُ كَهَيْئَةِ الزُّكَام، وَأَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بَعْد، وَإِنَّمَا يَكُون قَرِيبًا مِنْ قِيَام السَّاعَة.

ب–وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال (بادروا بالأعمال ستًّا طلوع الشمس من مغربها أو الدخان أو الدجال أو الدابة أو خاصة أحدكم أو أمر العامة) رواه مسلم.

قالوا: فهذان الحديثان مرفوعان، والمرفوع مقدم على الموقوف.

وقال ابن كثير بعدما ساق أثر ابن عباس والذي مفاده أن الدخان لم يأت بعد، قال: "هذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين ﷺ أجمعين مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرهما التي أوردوها مما فيه مقنع، ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة.

وقال رحمه الله: والحَديثانِ في صَحيحِ مُسْلِمٍ مَرفوعانِ، والمرفوعُ مُقَدَّمٌ على كُلِّ مَوقوفٍ، وفي ظاهِرِ القُرآنِ ما يَدُلُّ على وُجودِ دُخَانٍ مِنَ السَّماءِ يَغشى النَّاسَ، وهذا أمرٌ مُحَقَّقٌ عامٌّ، ولَيسَ كما رُوِيَ عَنِ ابنِ مَسعودٍ أنَّه خيالٌ في أعيُنِ قُرَيشٍ من شِدَّةِ الجوعِ. قال تعالى (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) أي: ظاهِرٍ بيِّنٍ واضِحٍ جِلِيٍّ، لَيسَ خيالًا من شِدَّةِ الجوعِ (رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَّابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ). أي: يُنادي أهلُ ذلك الزَّمانِ رَبَّهم بهذا الدُّعاءِ يَسألونَ كشفَ هَذِه الشِّدَّةِ عَنهم، فإنَّهم قَد آمَنوا، وأيقَنوا بما وُعِدوا به مِنَ الأمورِ الغَيبيَّةِ الكائِنةِ بَعدَ ذلك يَومَ القيامةِ، وهذا دَليلٌ على أنَّ هذا أمرٌ يَكونُ قَبلَ يَومِ القيامةِ؛ حَيثُ يُمكِنُ رَفعُه، ويُمكِنُ استِدراكُ التَّوبةِ والإنابةِ، والله أعلَمُ.

قال السفاريني: قال العلماء: آية الدخان ثابتة بالكتاب والسنة أما الكتاب فقوله سبحانه وتعالى (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ) وأما تفسير ابن مسعود هذه الآية بما حصل لقريش فقد قال عنه ابن كثير: "هذا التفسير غريب جدًّا، ولم يُنقل مثله عن أحد من الصحابة غيره.

وعلى هذا القول تكون البطشة الكبرى –في قوله تعالى (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ)– يوم القيامة كما هو مروي عن ابن عباس والحسن البصري وعكرمة واختاره الزجاج وابن كثير عليهم رحمة الله.

تنبيه :

ذهب بعض العلماء إلى الجمع بين النصوص:

وإليه ذهب الطحاوي وأبو الخطاب بن دحية وأشار إليه الطبري واحتمله النووي:

وهو حمل ما جاء في النصوص على أنَّهما دخانان:

أحدهما: ما أصاب قريش عندما دعا عليهم النبي ﷺ كما جاء ذلك عن ابن مسعود ﷺ وهذا قد مضى وانتهى.

والثاني: يكون من علامات الساعة قبل قيامها كما جاء ذلك في حديث حذيفة وأبي هريرة رضى الله عنهما.

قال الطحاوي: الدخان المذكور في أحاديث ابن مسعود ﷺ غير الدخان المذكور في حديثي حذيفة وأبي هريرة.

وقال الطبري رحمه الله: "وبعد، فإنه غير منكر أن يكون أحل بالكفار الذين توعدهم بِهذا الوعيد ما توعدهم، ويكون محلًّا فيما يستأنف بعد بآخرين دخانًا على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ.

وقال النووي: ويُحتمل أنَّهما دخانان للجمع بين هذه الآثار.

قال ابنُ حَجَرٍ: رَوى الطَّبَرِيُّ من حَديثِ ربعيٍّ عَن حُذَيفةَ مَرفوعًا في خُروجِ الآياتِ والدُّخانِ قال حُذَيفةُ: يا رَسولَ اللهِ، وما الدُّخانُ، فتَلا هَذِه الآيةَ. قال (أمَّا الْمُؤمِنُ فيُصيبُه مِنه كهَيئةِ الزكمةِ، وأمَّا الكافِرُ فيَخرُجُ من منخرَيه وأُذُنَيه ودُبُرِه)، وإسنادُه ضَعيفٌ أيضًا، ورَوى ابنُ أبي حاتِمٍ من حَديثِ أبي سَعيدٍ نَحوَه، وإسنادُه ضَعيفٌ أيضًا، وأخرَجَه مَرفوعًا بإسنادٍ أصلَحَ مِنه،

ولِلطَّبَرِيّ من حَديثِ أبي مالِكٍ الأشعَرِيّ رَفعَه: (إنَّ رَبَّكم أنذَرَكم ثَلاثًا: الدُّخانَ يَأخُذُ الْمُؤمِنَ كالزُّكمةِ) الحَديث. ومِن حَديثِ ابن عُمَرَ نَحوُه، وإسنادُهما ضَعيفٌ أيضًا، لَكِن تَضافُرُ هَذِه الأحاديثِ يَدُلُّ على أنَّ لذلك أصلاً .

قال السَّفارينيُّ عَن خُروجِ الدخان: هو ثابِتٌ بالكِتابِ والسُّنةِ... قال ابنُ عَبَّاس وابنُ عُمَرَ والحَسَنُ وزيدُ بنُ عليٍّ: هو دُخَانٌ قَبلَ قيامِ السَّاعةِ يَدخُلُ في أسماعِ الكُفَّارِ والمنافِقينَ، ويَعتَري الْمُؤمِنينِ مِنه كهَيئةِ الزُّكامِ، وتَكونُ الأرضُ كُلُّها كبَيتٍ أُوقِدَ فيه، ولَمَ يَأتِ بَعدُ، وهو آتٍ .

وقال صَديق حَسَن خان: مِن أشراطِ السَّاعةِ الدُّخانُ ... قال العُلَماءُ: آيةُ الدُّخانِ ثابِتةٌ بالكِتابِ والسُّنةِ .

وقال ابنُ قاسِمٍ: إنَّ من أشراطِ السَّاعةِ الَّتي ثبَت بها الكِتابُ والسُّنةُ، ويَجِبُ الإيمانُ بها: آية، أي: عَلامةَ الدُّخانِ، قال تعالى: فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ . قال ابنُ عَبَّاسٍ وغَيرُه: هو دُخَانٌ قَبلَ قيامِ السَّاعةِ، يَدخُلُ في أسماعِ الكُفَّارِ والمنافِقينَ، ويَعتَري الْمُؤمِنَ مِنه كهَيئةِ الزُّكامِ. وتقَدَّمَ فيما أخرجه مُسْلِم : إنَّها لَن تَقومَ السَّاعةُ حَتَّى تَرَوا عَشْرَ آياتٍ فذَكَرَ مِنها: الدُّخانَ .

٣-ثاني هذه العلامات : الدجال .

الحديث دليل على أن خروج المسيح الدجال من علامات الساعة الكبرى .

ومن الأدلة أيضاً :

عن أَنَس قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الْكَذَّابَ أَلاَ إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر) متفق عليه.

وفي لفظ (الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ». ثُمَّ تَهَجَّاهَا ك ف ر : يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُسْلِم).

وعن ابن عمر قال (قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّاسِ فَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ ذَكَرَ الدَّجَّالَ فَقَالَ إِنِّي أُنْذِرُكُمُوهُ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ لَقَدْ أَنْذَرَهُ نُوحٌ قَوْمَهُ وَلَكِنِّي سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلاً لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ أَعْوَرُ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ). رواه البخاري

وفي حديث أبي عبيدة بن الجراح، عند أبي داود، والترمذيّ، وحسّنه (لم يكن نبيّ بعد نوح إلا وقد أنذر قومه الدجال).

وعند أحمد (لقد أنذره نوح أمته، والنبيون من بعده).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا الدَّجَّالَ وَالدُّخَانَ وَدَابَّةَ الأَرْضِ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَأَمْرَ الْعَامَّةِ وَخُوَيِّصَةَ أَحَدِكُمْ) رواه مسلم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال (كُنَّا نَتَحَدَّثُ عَنْ حَجَّةِ الوَدَاعِ، والنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَلا نَدْرِي مَا حَجَّةُ الوَدَاعِ حَتَّى حَمِدَ اللهَ رَسُول الله ﷺ وَأَثْنَى عَلَيهِ ثُمَّ ذَكَرَ المسيحَ الدَّجَّال فَأَطْنَبَ في ذِكْرِه، وَقَال (مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ إلاَّ أَنْذَرَهُ أُمَّتَهُ أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنَّهُ إنْ يَخْرُجْ فِيكُمْ فَما خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأنِه فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُم، إنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بأعْوَرَ وإنَّهُ أعْوَرُ عَيْنِ اليُمْنَى، كَأنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ) رواه البخاري .

وقال ﷺ (يا أيها الناس، إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال) رواه ابن ماجه .

فائدة : ١

قصته باختصار :

هو رجل من بني آدم – خلقه الله تعالى ليكون محنة للناس في آخر الزمان – هو من أعظم الفتن التي حذرت منها الأنبياء أقوامها – من صفاته قصير أفحج أعور العين اليمنى – معه جنة ونار فناره جنة وجنته نار – وأكثر أتباعه من اليهود والنساء والأعراب

– يمكث في الأرض ٤٠ يوماً – لا يدخل مكة ولا المدينة – ويكون هلاكه على يد مسيح الهدى عيسى ابن مريم في بلاد الشام عند باب لد.

وهو رجل كذاب يخرج في آخر الزمان يدعي الألوهية.

فائدة : ٢

لماذا سمي بالمسيح .

قال العلماء في سبب تسمية الدجال بالمسيح: أن إحدى عينيه ممسوحة، وقيل: لأنه يمسح الأرض في أربعين يوماً.

والقول الأول هو الراجح .

لما جاء في الحديث الذي رواه مسلم : أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ :الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ.

قال عياضٌ: قال عيسى بن دينارٍ وغَيرُه: سُمِّي الدَّجَّالُ مَسيحًا؛ لأنَّه مَمسوحُ إحدى العَينينِ، فهو فَعِيلٌ بمَعنى مَفعولٍ... وقيلَ: بمَسحِه الأرضَ حينَ خُروجِه .

وقال القُرطُبيُّ: أمَّا الدَّجَّالُ فُسُمِّيَ مَسيحًا لأنَّه مَمسوحُ إحدى العَينين، وقَد قيلَ في الدَّجَّالِ مِسِّيحٌ -بكَسرِ الْميمِ وشَدِّ السِّينِ- وبَعضُهم يَقولُ كذلك بالخاءِ الْمَنقوطةِ. وبَعضُهم يَقولُ: مَسيخٌ -بفَتحِ الْميمِ وبِالخاءِ والتَّخفيفِ-، والأوَّلِ أشهَرُ، وعليه الأكثَرُ، سُمِّيَ به؛ لأنَّه يَسيحُ في الأرضِ، أي: يَطوفُها ويَدخُلُ جَميعَ بُلدانِها إلَّا مَكةَ والمدِينةَ وبَيتَ الْمَقْدِسِ، فهو فعيلٌ بمَعنى فاعِلٍ، فالدَّجَّالُ يَمسَحُ الأرضَ مِحنةً، وابنُ مَريَم يَمسَحُها مِنحةً، وعلى أنَّه مَمسوحُ العينِ فَعيلٌ بمَعنى مَفعولٍ) .

وقال النَّوَويُّ: (وأمَّا الدَّجَّالُ فقيل سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه مَمسوحُ العينِ، وقيلَ: لأنَّه أعورُ، والأعورُ يُسَمَّى مَسيحًا، وقيلَ: لمسحِه الأرضَ حينَ خُروجِه، وقيل غَيرُ ذلك .

وقال العَينيُّ: قَولُه (الْمَسيحُ الدَّجَّالُ) أمَّا تَسميَتُه بالمسيحِ فلِأنَّ الخَيرَ مُسِحَ مِنه، فهو مَسيحُ الضَّلالةِ، وقيل: سُمِّيَ به لأنَّ عينَه الواحِدةَ مَمسوحةٌ، ويُقالُ: رَجُلٌ مَمسوحُ الوَجهِ ومَسيحٌ، وهو أنْ لا يَبقى على أحَدِ شِقَّيْ وَجْهِه عَينٌ ولا حاجِبٌ إلَّا استَوى. وقيلَ: لأنَّه يَمسَحُ الأرضَ، أي: يَقطَعُها .

وقال القَسطَلاني في الدَّجَّالِ: سُمِّيَ... بالمسيحِ؛ لأنَّ إحدى عينَيه مَمسوحةٌ، فعيلٌ بمَعنى مَفعولٍ، أو لأنَّه يَمسَحُ الأرضَ، أي: يَقطَعُها في أيَّامٍ مَعدودةٍ، فهو بمَعنى فاعِلٍ، أو لأنَّ الخَيرَ مُسِحَ مِنه، فهو مَسيحُ الضَّلالِ .

وقال الشَّوكانيُّ: أمَّا الدَّجَّالُ فَسُمِّيَ مَسيحًا؛ لأنَّه مَمسوحُ إحدى العَينينِ، وقيل: لأنَّه يَمسَحُ الأرضَ، أي: يَطوفُ بُلدانَها إلَّا مَكَّةَ والمدِينةَ وبَيت الْمَقدِس .

وأَوْلى هَذِه الأقوالِ أنَّه مَمسوحُ العينِ، كما جاءَ في الحَديثِ الصَّحيحِ: إنَّ الدَّجَّالَ مَمسوحُ العينِ .

فائدة : ٣

الدجال : أي الكذاب .

قال الكرمانيُّ: وُصِفَ بالدَّجَّالِ ليَمتازَ عَنِ الْمَسيحِ بنِ مَريَم عليه السلام، وسُمِّيَ دَجَّالًا لكَثرةِ خَلْطِه الباطِلَ بالحَقِّ .

وقال ابنُ حَجَرٍ: أمَّا الذي يَدَّعيه فإنَّه يَخرُجُ أوَّلًا فيَدَّعي الإيمانَ والصَّلاحَ، ثُمَّ يَدَّعي النُّبوَّةَ، ثُمَّ يَدَّعي الإلهيَّةَ .

فائدة : ٤

قد استُشكل إنذار نوح قومه بالدجال، مع أن الأحاديث قد ثبتت أنه يخرج بعد أمور ذُكرت، وأن عيسى يقتله بعد أن ينزل من السماء، فيحكمَ بالشريعة المحمدية.

والجواب: أنه كان وقتُ خروجه أُخفي على نوح؛ ومن بعده، فكأنهم أُنذروا به، ولم يُذكر لهم وقت خروجه، فحذروا قومهم من فتنته.

ويؤيده قوله ﷺ في بعض طرقه (إن يخرج، وأنا فيكم، فأنا حجيجه) فإنه محمول على أن ذلك كان قبل أن يتبين له وقت خروجه، وعلاماته، فكان يُجَوِّز أن يخرج في حياته ﷺ ثم بُيّن له بعد ذلك حاله، ووقت خروجه، فأخبر به، فبذلك تجتمع الأخبار.

وقال ابن العربيّ: إنذار الأنبياء عليهم السلام قومهم بأمر الدجال تحذير من الفتن، وطمأنينة لها حتى لا يزعزعها عن حسن الاعتقاد، وكذلك تقريب النبي ﷺ له زيادةٌ في التحذير، وأشار مع ذلك إلى أنهم إذا كانوا على الإيمان ثابتين، دَفَعوا الشُّبَهَ باليقين. (الفتح)

قال أبو العَبَّاس القُرطُبِيُّ: قَولُه (إنِّي لأُنذِرُكم الدَّجَّالَ، وما من نَبِيٍّ إلَّا وقَد أنذَرَه قَومَه، لَقَد أنذَرَه نوحٌ قَومَه) إنَّما كان هذا مِنَ الأنبياءِ لِمَا عَلِموا من عَظيمِ فِتنَتِه، وشِدَّةِ مِحْنَتِه، على ما يَأتي تَفصيلُها في الأحاديثِ الْمَذكورةِ بَعدُ، ولِأنَّهم لَمَّا لَم يُعَيَّنْ لواحِدٍ مِنهم زَمانُ خُروجِه، تَوَقَّعَ كُلُّ واحِدٍ مِنهم خُروجَه في زَمانِ أمَّتِه، فبالَغَ في التَّحذيرِ. وفائِدةُ هذا الإنذارِ الإيمانُ بوُجودِه والعَزمُ على مُعاداتِه ومُخالَفَتِه، وإظهارُ تَكذيبِه، وصِدْقُ الِالتِجاءِ إلى الله تعالى في التَّعَوُّذِ من فتنَتِه. وهذا مَذهَبُ أهلِ السُّنةِ، وعامَّةِ أهلِ الفِقهِ والحَديثِ. (المفهم)

فائدة : ٥

أسباب النجاة من فتنة المسيح الدجال؟

أولاً: الاستعاذة منه في الصلاة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ ، وَعَذَابِ النَّارِ ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ).

ثانياً: قراءة فواتح سورة الكهف.

لقوله ﷺ (من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم الدجال).

وعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ. قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ فقال (... إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ عَيْنُهُ طَافِئَةٌ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ فَمَنْ **أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ** ...) رواه مسلم .

ثالثاً: الهروب منه.

قال ﷺ (من سمع بالدجال فلينأ عنه).

رابعاً: سكنى مكة والمدينة.

قال ﷺ (إن الدجال لا يدخل مكة والمدينة).

فائدة : ٦

الحكمة من أن قراءة أول الكهف تعصم من الدجال ؟

قال النووي –رحمه الله–قيل: سبب ذلك ما في أوَّلِها من العجائب والآيات، فمَنْ تدبَّرها لم يفتتن بالدَّجال، وكذا في آخرها. .

وقال المناوي –رحمه الله– لِمَا في قصة أهل الكهف من العجائب، فمَنْ علمها لم يستغرب أمر الدَّجال، فلا يفتن، أو لأن مَن تدبَّر هذه الآيات، وتأمَّل معناها حَذَرَه، فأَمِنَ منه، أو هذه خصوصية أُودِعتْ في السورة، ومِنْ ثَمَّ ورد في رواية: «كُلِّها»، وعليه

يجتمع رواية «من أَوَّل» و«من آخر» ويكون ذكر العشر استدراجًا لحفظ الكُلِّ، و«الدَّجال» التَّعريف للعهد أو للجنس؛ لأن الدَّجال من يُكثر الكذب والتَّمويه، وفي خبر : يكون في آخر الزَّمان دجَّالون .

وقال الطيبي -رحمه الله-ويمكن أنْ يُقال: إنَّ أولئك الفتية (أصحاب الكهف) كما عُصِمُوا من ذلك الجبار، كذلك يَعْصِمُ الله القارئ من الجبَّارين. .

وقال الصنعاني -رحمه الله-ويُحتمل: أنه إذا عُصِمَ بها عن هذه الفتنة العظماء فعن غيرها بالأَوْلَى، والمراد بالعصمة ألَّا يذهب دينه، وإن ذهبت دُنياه أو سفك دمه .

فائدة : ٧

علامات تدل على كذب الدجال:

أولاً: أنه أعور والله تبارك وتعالى ليس بأعور.

كما في الحديث السابق (مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الْكَذَّابَ أَلاَ إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ) .

قال النووي: أمَّا قَوْله ﷺ (إِنَّ اللَّه تَعَالَى لَيْسَ بِأَعْوَر، وَالدَّجَّال أَعْوَر) فَبَيَان لِعَلَامَةٍ بَيِّنَة تَدُلّ عَلَى كَذِب الدَّجَّال دَلَالَة قَطْعِيَّة بَدِيهِيَّة، يُدْرِكهَا كُلّ أَحَد وَلَمْ يَقْتَصِر عَلَى كَوْنه جِسْمًا أَوْ غَيْر ذَلِكَ مِنْ الدَّلَائِل الْقَطْعِيَّة لِكَوْنِ بَعْض الْعَوَامّ لَا يَهْتَدِي إِلَيْهَا. وَاَللَّه أَعْلَم

وقال ابن حجر : إنما اقتصر على ذلك مع أن أدلة الحدوث في الدجال ظاهرة، لكون العور أثر محسوس يدركه العالم والعامي ومن لا يهتدي إلى الأدلة العقلية، فإذا ادعى الربوبية وهو ناقص الخلقة والاله يتعالى عن النقص علم أنه كاذب.

ثانياً: أنه يرى في الدنيا، والله لا يرى في الدنيا.

كما في الحديث (واعلموا أنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا) رواه مسلم.

قال ابن حجر: وفيه تنبيه على أن دعواه الربوبية كذب، لأن رؤية الله تعالى مقيدة بالموت، والدجال يدعي أنه الله ويراه الناس مع ذلك.

ثالثاً: مكتوب عليه (كافر) يقرؤها كل مسلم.

عن أَنَس قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الْكَذَّابَ أَلاَ إِنَّهُ أَعْوَرُ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر) متفق عليه.

وفي لفظ (الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ». ثُمَّ تَهَجَّاهَا ك ف ر «يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُسْلِم).

قال النووي: الصَّحِيح الَّذِي عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ أَنَّ هَذِهِ الْكِتَابَة عَلَى ظَاهِرهَا، وَأَنَّهَا كِتَابَة حَقِيقَة جَعَلَهَا اللَّه آيَة وَعَلَامَة مِنْ جُمْلَة الْعَلَامَات الْقَاطِعَة بِكُفْرِهِ وَكَذِبه وَإِبْطَاله، وَيُظْهِرهَا اللَّه تَعَالَى لِكُلِّ مُسْلِم كَاتِب وَغَيْر كَاتِب، وَيُخْفِيهَا عَمَّنْ أَرَادَ شَقَاوَته وَفِتْنَته، وَلَا اِمْتِنَاع فِي ذَلِكَ، وَذَكَرَ الْقَاضِي فِيهِ خِلَافًا: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: هِيَ كِتَابَة حَقِيقِيَّة كَمَا ذَكَرْنَا. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ هِيَ مَجَاز وَإِشَارَة إِلَى سِمَات الْحُدُوث عَلَيْهِ، وَاحْتَجَّ بِقَوْلِهِ: "يَقْرَأهُ كُلّ مُؤْمِن كَاتِب وَغَيْر كَاتِب"، وَهَذَا مَذْهَب ضَعِيف.

فائدة : ٨

مكان خروجه :

يخرج المسيح الدجال من جهة المشرق .

بينت الأدلة الصحيحة أن خروج المسيح الدجال يبدأ من المشرق ، وتحديدا من إقليم خراسان، بل بالأخص من أصبهان في إقليم خراسان ، وهي من بلاد إيران اليوم .

عَن أبي هُرَيرةَ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال (يَأْتي المسِيحُ من قِبَلِ المشْرِقِ) رواه مسلم .

وعَن أنسِ بنِ مالِكٍ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال (يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِن يَهودِ أصبَهانَ سَبعونَ ألفًا عليهم الطَّيالِسةُ) متفق عليه .

وعَن أبي بَكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ قال: حَدَّثنا رَسولُ الله ﷺ (الدَّجَّالُ يَخرُجُ من أرضٍ بالمشرِقِ يُقالُ لَها: خُراسانُ) رواه الترمذي .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : يكون بدء ظهوره من أصبهان ، من حارة يقال لها : اليهودية .

قال الحافظ : أما من أين يخرج فمن قبل المشرق جزماً ، ثم جاء في رواية : أنه يخرج من خراسان ، أخرج ذلك أحمد والحاكم من حديث أبي بكر ، وفي أخرى : أنه يخرج من أصبهان ، أخرجها مسلم انتهى .

فائدة : ٩

فتنة المسيح الدجال تعم جميع الأرض إلا مكة والمدينة .

عن أَنَس بْن مَالِك ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلاَّ سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ إِلاَّ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ لَيْسَ لَهُ مِنْ نِقَابِهَا نَقْبٌ إِلاَّ عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا) متفق عليه .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلاَئِكَةٌ لاَ يَدْخُلُهَا الطَّاعُونُ ، وَلاَ الدَّجَّالُ) رواه مسلم .

قوله (لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلاَّ سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ) .

قال ابن حجر : هو على ظاهره وعمومه عند الجمهور ، وشذّ ابن حزم فقال : المراد ألا يدخله بعثه وجنوده ، وكأنه استبعد إمكان دخول الدجال جميع البلاد لقصر مدته ، وغفل عما ثبت في الصحيح أن بعض أيامه يكون قدر السنة .

فائدة : ٩

الدجال من أعظم الفتن ، لدرجة أنه ليس بين خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أكبر من فتنة المسيح الدجال.

عن عمران بن حصين ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ خَلْقٌ أَكْبَرُ مِنْ الدَّجَّالِ). رواه مسلم

وفي رواية أحمد عَنْ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ الأَنْصَارِيِّ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ (مَا بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ فِتْنَةٌ أَكْبَرُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ).

وذلك بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التي تبهر العقول وتحير الألباب.

فائدة : ١٠

جداء في مسلم وصف عينه اليسرى بالعور ، وجاء في الصحيحين وصف عينه اليمنى بالعور .

فذهب الحافظ ابن حجر إلى أن حديث ابن عمر الوارد في الصحيحين والذي جاء فيه وصف عينه اليمنى بالعور أرجح من رواية مسلم الّتي جاء فيها وصف عينه اليسرى بالعور؛ لأنَّ المتَّفق على صحَّته أقوى من غيره.

وذهب القاضي عياض إلى أن عيني الدَّجّال كلتيهما معيبة؛ لأنَّ الروايات كلها صحيحة، وتكون العين المطموسة والممسوحة هي العوراء الطافئة- بالهمز-؛ أي: الّتي ذهب ضوؤها، وهي العين اليمنى؛ كما في حديث ابن عمر. وتكون العين اليسرى الّتي عليها ظفرة غليظة، وهي الطافية -بلا همز- معيبة أيضًا، فهو أعور العين اليمنى واليسرى معًا، فكل واحدة منهما عوراء؛ أي: معيبة؛ فإن الأعور من كلّ شيء: المعيب، لا سيما ما يختصُّ بالعين، فكلا عيني الدَّجَّال معيبة عوراء، إحداهما بذهابها، والأخرى بعيبها.

قال النوويّ في هذا الجمع: هو في نهاية من الحسن .

وقال رحمه الله أيضاً : وَأَمَّا قَوْله ﷺ (أَعْوَر الْعَيْن الْيُمْنَى كَأَنَّهَا عِنَبَة طَافِيَة) ثُمَّ إِنَّهُ جَاءَ هُنَا (أَعْوَر الْعَيْن الْيُمْنَى) وَجَاءَ فِي رِوَايَة أُخْرَى (أَعْوَر الْعَيْن الْيُسْرَى) وَقَدْ ذَكَرَهُمَا جَمِيعًا مُسْلِم فِي آخِر الْكِتَاب وَكِلَاهُمَا صَحِيح .

فائدة : ١١

قوله (**وَلَكِنِّي سَأَقُولُ لَكُمْ فِيهِ قَوْلاً لَمْ يَقُلْهُ نَبِيٌّ لِقَوْمِهِ**) قيل: إن السرّ في اختصاص النبيّ ﷺ بالتنبيه المذكور، مع أنه أوضح الأدلة في تكذيب الدجال، أن الدجال إنما يخرج في أمته، دون غيرها، ممن تقدم من الأمم، ودل الخبر على أن عِلم كونه يختص خروجه بهذه الأمة كان طُوِيَ عن غير هذه الأمة، كما طُوِي عن الجميع عِلم وقت قيام الساعة.

فائدة : ١٢

قال ابن القيم: قال النبي ﷺ (من سمع بالدجال فلينأ عنه) فما استعين على التخلص من الشر بمثل البعد عن أسبابه ومظانه.

فائدة : ١٣

أتباع الدجال :

اليهود :

لقوله ﷺ (يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة) رواه مسلم .

الأعراب :

وإنما يكثر أتباعه من الأعراب؛ لغلبة الجهل عليهم .

ولما جاء في حديث أبي أمامه ﷺ من قوله (وإن من فتنته أن معه جنة وناراً، فناره جنة وجنته نار، فمن ابتلي بناره فليستغث بالله، وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه برداً وسلاماً، كما كانت النار على إبراهيم، وإن من فتنته أن يقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم. فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بني اتبعه فإنه ربّك، وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة فيقتلها وينشرها بالمِنشار، حتى يلقى شقتين، ثم يقول: انظروا إلى عبدي هذا، فإني أبعثه الآن، ثم يزعم أن له رباً غيري! فيبعثه الله، ويقول له الخبيث: من ربك؟ فيقول: ربي الله، وأنت عدو الله، أنت الدجال والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك مني اليوم) رواه ابن ماجه، وهو صحيح.

النساء :

وأما النساء فحالهن أشد من حال الأعراب؛ لسرعة تأثرهن، وغلبة الجهل عليهن.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (يَنْزِلُ الدَّجَّالُ فِي هَذِهِ السَّبَخَةِ بِمَرِّ قَنَاةَ، فَيَكُونُ أَكْثَرَ مَنْ يَخْرُجُ إِلَيْهِ النِّسَاءُ، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَرْجِعُ إِلَى حَمِيمِهِ وَإِلَى أُمِّهِ وَابْنَتِهِ وَأُخْتِهِ وَعَمَّتِهِ، فَيُوثِقُهَا رِبَاطًا، مَخَافَةَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيْه) رواه أحمد .

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن المصطفى ﷺ قال (ينزل الدجال في هذه السَّبِخة بمر قناة، فيكون أكثر من يخرج إليه النساء، حتى إن الرجل ليرجع إلى حميمه وإلى أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة أن تخرج إليه، ثم يسلط الله المسلمين عليه فيقتلونه ويقتلون شيعته، حتى إن اليهودي ليختبئ تحت الشجرة أو الحجر، فيقول الحجر أو الشجرة للمسلم: هذا يهودي تحتي فاقتله) رواه أحمد بسند صحيح.

ولعظم فتنته يتبعه أكثر أهل الأرض .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وأخرج أبو نعيم في ترجمة حسان بن عطية أحد ثقات التابعين من "الحلية" بسند حسن صحيح إليه قال: (لا ينجو من فتنة الدجال إلا اثنا عشر ألف رجل، وسبعة آلاف امرأة) وهذا لا يقال من قبل الرأي، فيحتمل أن يكون مرفوعاً أرسله، ويحتمل أن يكون أخذه عن بعض أهل الكتاب . (فتح الباري)

وقد جاء في صحيح مسلم (فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر) .

فائدة : ١٤

مدة لبثه في الأرض :

عنِ النَّواسِ بنِ سَمعانَ رَضِيَ الله عَنه قال: قُلنا: يا رسولَ اللهِ، وما لُبْثُهُ في الأرضِ؟ قال(أربَعونَ يَومًا؛ يَومٌ كسَنةٍ، ويَومٌ كشَهرٍ، ويَومٌ كجُمُعةٍ، وسائِرُ أيَّامِه كأيَّامِكم) قُلْنا: يا رسولَ اللهِ، فذلك اليَومُ الذي كسَنةٍ أتَكْفِينا فيه صَلاةُ يَومٍ؟ قال: لا، اقدُروا لُه قَدْرَه) .

قال النَّوَويُّ: قَولُه ﷺ (يَومٌ كسَنةٍ، ويَومٌ كشَهرٍ، ويَومٌ كجُمُعةٍ، وسائِرُ أيَّامِه كأيَّامِكم) قال العُلَماءُ: هذا الحَديثُ على ظاهِرِه، وهَذِه الأيَّامُ الثَّلاثةُ طَويلةٌ على هذا القَدرِ الْمَذكورِ في الحَديثِ، يَدُلُّ عليه قَولُه ﷺ: وسائِرُ أيَّامِه كأيَّامِكم، وأمَّا قَولُهم: يا رَسولَ اللهِ، فذلك اليَومُ الذي كسَنةٍ أتَكفينا فيه صَلاةُ يَومٍ؟ قال: لا، اقدُرُوا لَه قَدْرَه.

وقال ابنُ كثيرٍ: مُدَّةُ مُقامِه في الأرضِ أربَعونَ يَومًا؛ يَومٌ كسَنةٍ، ويَومٌ كشَهرٍ، ويَومٌ كجُمُعةٍ، وسائِرُ أيَّامِه كأيَّامِ النَّاسِ هَذِه، ومُعَدَّلُ ذلك سَنةٌ وشَهرانِ ونِصفٌ .

فائدة : ١٥

الحكمة من عدم ذكر الدجال في القرآن :

قال ابن حجر : وأجيب بأجوبة:

أحدها: أنه ذُكر في قوله : (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) فقد أخرج الترمذي وصححه عن أبي هريرة ﷺ رفعه (ثلاثة إذا خرجن لم ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل: الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها) .

الثاني: قد وقعت الإشارة في القرآن إلى نزول عيسى عليه السلام في قوله تعالى (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ) وفي قوله تعالى (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ) وصح عنه أنه الذي يقتل الدجال، فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر، ولكونه يلقب: (المسيح) كعيسى عليه السلام؛ لكن الدجال مسيح الضلالة، وعيسى عليه السلام مسيح الهدى.

الثالث: أنه ترك ذكره احتقارًا .

فائدة : ١٦

لم تحدد السنة عاما محددا لخروجه، ولكن ذكرت أمارات يدل وقوعها على قرب خروجه، ومن هذه الأمارات.

قلة العرب:

فروى مسلم في صحيحه، عن أم شريك أنها سمعت النبي ﷺ يقول (ليفرن الناس من الدجال في الجبال "، قالت أم شريك: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ. قال: قليل) .

لملحمة وفتح القسطنطينية:

روى أبو داود، عن معاذ أن رسول الله ﷺ قال (عمران بيت المقدس، خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال) .

وروى مسلم، عن جابر بن سمرة، عن نافع بن عتبة رضي الله عنهما أنه قال: حفظت منه –من رسول الله ﷺ– أربع كلمات أعدهن في يدي قال (تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله عز وجل، ثم فارس فيفتحها الله عز وجل، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله " قال: فقال نافع: يا جابر، لا نرى أن الدجال يخرج حتى تفتح الروم) .

انحباس المطر والنبات:

عن أبي أمامة أن الرسول ﷺ قال (إن قبل خروج الدجال ثلاث سنوات شداد، يصيب الناس فيها جوع شديد، يأمر الله السماء في السنة الأولى أن تحبس ثلث مطرها، ويأمر الأرض أن تحبس ثلث نباتها، ثم يأمر السماء في الثانية فتحبس ثلثي مطرها، ويأمر الأرض فتحبس ثلثي نباتها، ثم يأمر السماء في السنة الثالثة فتحبس مطرها كله، فلا تقطر قطرة، ويأمر الأرض فتحبس نباتها كله، فلا تنبت خضراء، فلا يبقى ذات ظلف إلا هلكت، ما شاء الله، قيل: فما يعيش الناس في ذلك الزمان؟ قال: التهليل، والتكبير، والتحميد، ويجزئ ذلك عليهم مجزأة الطعام) رواه ابن ماجه .

فائدة : ١٧

هلاكه

يكون هلاكه على يد المسيح عيسى ابن مريم .

عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قَالَ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ فقال (... إِذْ بَعَثَ اللَّهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ ... فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ) .

وعن عبد الله بن عمرو . قال : قال رسول الله ﷺ (يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ – لاَ أَدْرِى أَرْبَعِينَ يَوْمًا أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا – فَيَبْعَثُ اللَّهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ) رواه مسلم .

وعن مجمع بن جارية . قال : قال ﷺ (يقتل ابن مريم الدجال بباب لد) رواه الترمذي .

قال النووي (بباب لد) هو بضم اللام وتشديد الدال ، وهو بلدة قريبة من بيت المقدس .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : وأما متى يهلك ومن يقتله ؟ فإنه يهلك بعد ظهوره على الأرض كلها إلا مكة والمدينة ، ثم يقصد بيت المقدس فينزل عيسى فيقتله ، أخرجه مسلم أيضا " انتهى.

٤–ثالث هذه العلامات : الدَّابَّةَ .

الحديث دليل على أن خروج الدابة من علامات الساعة الكبرى .

والدابة لغة: كل ما يدب على الأرض.

واصطلاحاً: دابة يُخرجها الله قرب قيام الساعة تكلم الناس على أنهم مستحقون للعذاب.

ومن الأدلة :

قوله تعالى (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا الدَّجَّالَ وَالدُّخَانَ وَدَابَّةَ الأَرْضِ وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَأَمْرَ الْعَامَّةِ وَخُوَيِّصَةَ أَحَدِكُمْ).

قوله تعالى (إِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ) هذا بيان لما يكون بين يدي الساعة، أي إذا قرُبَ وقت نزول العذاب وقيام الساعة

(أَخْرَجْنَا لَهُمْ) أي الموجودين في ذلك الوقت من الكفار.

والمراد بوقوع القول عليهم: قرب قيام الساعة، وانتهاء الوقت الذي يقبل فيه الإيمان من الكافر. أو الذي تنفع فيه التوبة.

والمعنى: إذا دنا وقت قيام الساعة، وانتهى الوقت الذي ينفع فيه الإيمان أو التوبة، أخرجنا للناس بقدرتنا وإرادتنا، دابة من الأرض تكلمهم، فيفهمون كلامها، ويعرفون أن موعد قيام الساعة قد اقترب.

(دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ) دابة تدب على الأرض، ولم يأت شيء صحيح عن صفتها، فهي دابة يخرجها الله في آخر الزمان، علامة من علامات الساعة الكبرى.

(تُكَلِّمُهُمْ) قيل: تخاطبهم مخاطبة، وقيل: تجرحهم لقراءة (تَكْلَمهم) وقيل: كلاً تفعل، يعني هذا وهذا، قال ابن كثير: وهو قول حسن.

فائدة : ١

قال ابن كثير: وهذه الدابة تخرج في آخر الزمان، عند فساد الناس، وتركهم أوامر الله، وتبديلهم الدين الحق.

وقال السَّعديُّ: إذا وقَعَ على النَّاسِ القَولُ الذي حَتَمَه اللهُ وفَرَضَ وَقْتَه أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً خارِجةً مِنَ الْأَرْضِ أو دابَّةٌ من دَوَابِّ الأرضِ لَيسَت مِنَ السَّماءِ. وهَذِه الدَّابَّةُ تُكَلِّمُهُمْ أي: تُكَلِّمُ العِبادَ أنَّ النَّاسَ كانوا بآياتِنا لا يوقِنونَ، أي: لأجلِ أنَّ النَّاسَ ضَعُفَ عِلمُهم ويَقينُهم بآياتِ الله، فإظهارُ الله هَذِه الدَّابةَ من آياتِ الله العَجيبةِ؛ ليبَيِّنَ للنَّاسِ ما كانوا فيه يَمتَرونَ.

وهَذِه الدَّابَّةُ هيَ الدَّابَّةُ الْمَشهورةُ الَّتي تَخرُجُ في آخِرِ الزَّمانِ وتَكونُ من أشراطِ السَّاعةِ، كما تَكاثَرَت بذلك الأحاديثُ ولَم يَأتِ دَليلٌ يَدُلُّ على كيفيَّتِها ولا من أيِّ نَوعٍ هيَ، وإنَّما دَلَّتِ الآيةُ الكَريمةَ على أنَّ الله يُخرِجُها للنَّاسِ، وأنَّ هذا التَّكليمَ مِنها خارِقٌ للعَوائِدِ الْمَألوفةِ، وأنَّه مِنَ الأدِلَّةِ على صِدْقِ ما أخبَرَ اللهُ به في كِتابِه. واللهُ أعلَمُ . (السعدي)

فائدة : ٢

أقوال الناس في الدابة :

اختلف العلماء في حقيقة هذه الدابة وتعيينها ، ومن أي دواب الأرض هي على أقوال :

القول الأول : إن الدابة هي فصيل ناقة نبي الله صالح .

ورجح هذا القول القرطبي في تفسيره .

قال القرطبي : وَهُوَ أَصَحُّهَا- وَاللَّهُ أَعْلَمُ- لِمَا ذَكَرَهُ أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسِيُّ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّابَّةَ فَقَالَ:" لَهَا ثَلَاثُ خَرْجَاتٍ مِنَ الدَّهْرِ فَتَخْرُجُ فِي أَقْصَى الْبَادِيَةِ وَلَا يَدْخُلُ ذِكْرُهَا الْقَرْيَةَ- يَعْنِي مَكَّةَ- ثُمَّ تكمن زمانا طويلا ثم تخرج خَرْجَةً أُخْرَى دُونَ ذَلِكَ فَيَفْشُو ذِكْرُهَا فِي الْبَادِيَةِ وَيَدْخُلُ ذِكْرُهَا الْقَرْيَةَ" يَعْنِي مَكَّةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (ثُمَّ بَيْنَمَا النَّاسُ فِي أَعْظَمِ الْمَسَاجِدِ عَلَى اللَّهِ حُرْمَةً خَيْرِهَا وَأَكْرَمِهَا عَلَى اللَّهِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لَمْ يَرُعْهُمْ إِلَّا وَهِيَ تَرْغُو بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ تَنْفُضُ عَنْ رَأْسِهَا التُّرَابَ فَارْفَضَّ النَّاسُ منها شتى ...) .

وَمَوْضِعُ الدَّلِيلِ من هذا الحديث أنه الفصيل قول:" وَهِيَ تَرْغُو" وَالرُّغَاءُ إِنَّمَا هُوَ لِلْإِبِلِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْفَصِيلَ لَمَّا قُتِلَتِ النَّاقَةُ هَرَبَ فَانْفَتَحَ لَهُ حَجَرٌ فَدَخَلَ فِي جَوْفِهِ ثُمَّ انْطَبَقَ عَلَيْهِ، فَهُوَ فِيهِ حَتَّى يَخْرُجَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

القول الثاني : أنها الجساسة ، التي تجس الأخبار للمسيح الدجال .

ونسبه القرطبي (صاحب التفسير) لابن عمر .

ونسبه كل: ابن قتيبة، والقرطبي (صاحب المفهم) والسفاريني، وحافظ حكمي: لعبد الله بن عمرو بن العاص .

وهذا القول جزم به واختاره : الزمخشري ، والنسفي ، والبيضاوي .

القول الثالث : إن الدابة هي الحية أو الثعبان المشرف على جدار الكعبة حين أرادت قريش بناء الكعبة ، الذي اقتلعه العقاب من على الجدار ، ورمى به في أجياد ، أو الحجون .

وهذا القول نسبه الفاكهي والسخاوي لابن عباس ، ونسبه له أيضاً كل من : ابن عطية ، والقرطبي في التفسير .

القول الرابع : إن الدابة هي عصى نبي الله موسى الشهيرة .

وهذا القول حكاه ابن كثير دون عزو لقائل في أثناء حديثه عن عصى موسى ، وردّ عليه ابن كثير نفسه بوصفه : أنه من الاسرائيليات .

فائدة : ٣

قال القرطبي : قال بعض المتأخرين من المفسرين: الأقرب أن تكون هذه الدابة إنسانا متكلما يناظر أهل البدع والكفر، ويجادلهم لينقطعوا، فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة. .

وقد ردّ هذا القول القرطبي في المفهم .

وذلك من أوجه :

أولاً : يلزم من هذا القول أن آية ظهور الدابة يوم القيامة ليس آية خارقة للعادة، وليس من الآيات العشر المذكورة في الحديث.

لأن وجود المناظرين والمجادلين لأهل البدع كثير ، وهو مشتهر بين الخلائق عبر العصور ، فذكرها بين العشر لا معنى له .

ثانياً : إن ما ورد في ذكر الدابة وعملها ووصفها من أحاديث وأقوال علماء الإسلام يخالف هذا القول .

ثالثاً : إن في هذا القول خروجاً عن عادة الفصحاء والبلغاء ، وفيه عدم تعظيم للعلماء ، وهو ليس من دأب العقلاء ، فكيف يطلق على من دافع عن حياض الإسلام ، وردَّ على المخالفين من أهل البدع والكفر لفظ دابة بدلاً من أن يطلق عليه إمام أو عالم أو مصلح .

فائدة : ٤

قال الشيخ حمود التويجري : إن تأويل الدابة التي تخرج من الأرض في آخر الزمان بالجراثيم التي تفتك بالإنسان وجسمه وأمواله تأويل باطل مردود، وهو من جنس تأويلات القرامطة والباطنية، ويلزم على هذا التأويل الباطل :

أ-تكذيب ما أخبر به رسول الله ﷺ في الأحاديث التي تقدم ذكرها، وتكذيب النبي ﷺ ينافي الإسلام .

وب- الجراثيم التي تفتك بالإنسان وصحته وأمواله قد كانت موجودة من أول الدنيا ومنتشرة في جميع أرجاء الأرض، وأما دابة الأرض؛ فإنما تخرج في آخر الزمان عند اقتراب الساعة. وعلى هذا؛ فتأويل الدابة بالجراثيم من أبطل التأويل وأبعده من المنقول والمعقول. (إتحاف الجماعة)

فائدة : ٥

وقد اختلف في وقت خلقها :

فقيل : إنها تخلق يوم تخرج .

وقيل : إنها مخلوقة الآن ، لكنها لم تؤمر بالخروج .

وأن قوله تعالى (أخرجنا لهم) دال على وجودها مسبقاً قبل إخراجها ، والله أعلم .

فائدة : ٦

وصف الدابة وشكلها .

جاءت روايات كثيرة لا يصح منها شيء .

قال أبو حيان : واختلفوا في ماهيتها ، وشكلها ، ومحل خروجها ، وعدد خروجها ، ومقدار ما تخرج منها ، وما تفعل بالناس ، وما الذي تخرج به ، اختلافاً مضطرباً معارضاً بعضه بعضاً ، ويكذب بعضه بعضاً ؛ فاطرحنا ذكره ، لأن نقله تسويد للورق بما لا يصح ، وتضييع لزمان نقله.

وقال الرازي بعد أن ذكر جملة من أوصافها : واعلم أنه لا دلالة في الكتاب على شيء من هذه الأمور فإن صح الخبر فيه عن الرسول ﷺ قبل وإلا لم يلتفت إليه .

وقال القرطبي : وقد اختلف في صورتها، وفي أي موضع تخرج منه على أقوال كثيرة، وليس في شيء من ذلك خبر صحيح مرفوع. (المفهم)

وقال السعدي : وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان وتكون من أشراط الساعة كما تكاثرت بذلك الأحاديث ، ولم يأت دليل يدل على كيفيتها ولا من أي: نوع هي وإنما دلت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس وأن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة وأنه من الأدلة على صدق ما أخبر الله به في كتابه والله أعلم .

وقال ابن عثيمين : وليس في القرآن والسنة الصحيحة ما يدل على مكان خروج هذه الدابة وصفتها، وإنما وردت في ذلك أحاديث في صحتها نظر. وظاهر القرآن أنها دابة تنذر الناس بقرب العذاب والهلاك والله أعلم.

فائدة : ٧

وقت خروج الدابة :

عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ الله عَنهما قال: حَفِظْتُ من رَسولِ الله ﷺ حَديثًا لَم أنسَه بَعدُ، سَمِعتُ رَسولَ الله ﷺ يَقولُ (إنَّ أوَّلَ الآياتِ خُروجًا طُلوعُ الشَّمسِ من مَغرِبِها، وخُروجُ الدَّابَّةِ على النَّاسِ ضُحًى، وأيُّهما ما كانت قَبلَ صاحِبَتِها فالأخرى على إثرِها قَريبًا) .

قال الحافظ : الذي يترجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أولُ الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة في معظم الأرض، وينتهي ذلك بموت عيسى ابن مريم، وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلويّ، وينتهي ذلك بقيام الساعة، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب . (الفتح)

قال العلامة البرزنجي : هذا جمع حسن .

فائدة : ٨

أسباب خروج الدابة وظهورها .

أشار الله تعالى إلى أسباب خروج الدابة وظهورها فقال تعالى (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) .

فالآية ذكرت أن خروج دابة الأرض يكون عند وقوع القول، واختلف في المراد بالقول الوارد في الآية :

فقيل : المراد بوقوع القول عليهم: قرب قيام الساعة، وانتهاء الوقت الذي يقبل فيه الإيمان من الكافر. أو الذي تنفع فيه التوبة. وهو أرجح الأقوال .

فائدة : ٩

عمل الدابة ووظيفتها :

قال تعالى (... أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ) .

واختلف في المراد بالتكليم هنا :

فقيل : المراد بالتكليم المخاطبة والإخبار الحقيقي من قِبل الدابة للناس .

وذلك بناء على قراءة عامة الأمصار لقوله تعالى (تُكَلِّمُهُمْ) بضم الناء وفتح الكاف وتشديد اللام .

قال القرطبي : (أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم) أي دابة تعقل وتنطلق، وذلك والله أعلم ليقع لهم العلم بأنه آية من قبل الله تعالى ضرورة ، فإن الدواب في العادة لا كلام لها ولاعقل . (التذكرة)

وقيل : المراد بالتكليم في الآية التجريح ، وذلك من الكَلْم الذي بمعنى الجرح ، لا من الكلام الذي هو بمعنى التحديث .

لقراءة (تَكْلَمهم) .

ولعل أصحاب القول يستشهدون لقولهم بحديث أبي أمامة . أن النبي ﷺ قال (تخرج الدابة فَتَسِمُ الناس على خراطيمهم) .

وقيل : أن المقصود بالتكليم في الآية هو فعل الأمرين معاً .

ورجحه ابن كثير .

قال ابن كثير : وهذا القول ينتظم من مذهبين ، وهو قوي حسن جامع لهما . (البداية والنهاية)

٥-رابع هذه العلامات : طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا .

الحديث دليل على أن من علامات الساعة الكبرى : طلوع الشمس من مغربها .

ومن الأدلة :

قوله تعالى (هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) .

(**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**) فسرها النبي ﷺ بطلوع الشمس من مغربها، فإنه إذا طلعت الشمس لا يقبل الإيمان بعدها.

(**يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**) أي: إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذ لا يقبل منه، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك، فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم، وإن كان مخلّطاً فأحدث توبة حينئذ لم تقبل منه كما جاء بذلك الأحاديث.

فقوله تعالى (**أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**) المراد بها طلوع الشمس من مغربها .

قال ابنُ جَرِيرٍ: أَولى الأقوالِ بالصَّوابِ في ذلك ما تَظاهَرَت به الأخبارُ عَن رَسولِ الله ﷺ أنَّه قال: ذلك حينَ تَطلُعُ الشَّمسُ من مَغرِبِها .

وقال البَغَويُّ: (أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ) يَعني: طُلوعَ الشَّمسِ من مَغرِبِها، عليه أكثَرُ الْمُفَسِّرين، وأخرجه أبو سَعيدٍ الخُدْريُّ مَرفوعًا .

وقال الخازن : قال جمهور المفسرين: هو طلوع الشمس من مغربها.

وقال القاسمي: ذهب الجمهور إلى أن المراد بـ (البعض) في الآية هو طلوع الشمس من مغربها.

عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) متفق عليه.

وعن أبي ذر. قال: قال رسول الله ﷺ (أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت؟ قلت: لا أدري، قال: إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة، ثم تقوم حتى يقال لها: ارجعي، يوشك يا أبا ذر! أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت، وذلك حين (لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ..) متفق عليه.

فائدة : ١

لا تقبل التوبة بعد طلوع الشمس .

أ-لقوله تعالى (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) .

وتقدم حديث أبي هريرة (لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل) متفق عليه.

ب-عن أبي موسَى عبدِ اللهِ بنِ قَيسٍ الأشْعريّ ﷺ، عن النَّبيّ ﷺ قَالَ: (إنَّ الله تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بالليلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها) رواه مسلم .

ج-وعن أبي هُريرةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (مَنْ تَابَ قَبْلَ أنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِها تَابَ اللهُ عَلَيهِ) رواه مسلم .

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- (مَن تاب قبل طلوع الشمس مِن مغربها) يعني: أن التوبة تصحُّ وتُقبل دائمًا إلى الوقت الذي تطلع فيه الشمس من حيث تغرب، فإذا كان ذلك طُبع على كل قلبٍ بما فيه، ولم تنفع توبة أحد، وهذا معنى قوله تعالى: (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) وسر ذلك وسببه: أن ذلك هو أول قيام الساعة، فإذا شوهد ذلك وعُوِينَ حصل الإيمان الضروري، وارتفع الإيمان بالغيب الذي هو المكلف به (المفهم)

وقال النووي -رحمه الله- قوله ﷺ (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها) قال العلماء: هذا حدٌّ لقبول التوبة، وقد جاء في الحديث الصحيح: إن للتوبة بابًا مفتوحًا، فلا تزال مقبولة حتى يُغلق، فإذا طلعت الشمس مِن مغربها أُغلق ، وامتنعت التوبة على من لم يكن تاب قبل ذلك، وهو معنى قوله تعالى (يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا) . (شرح مسلم)

وقال ابن الجوزي -رحمه الله- فأما طلوع الشمس من مغربها، فعلامة على امتناع قبول التوبة .

وقال البيضاوي -رحمه الله-إن باب التوبة مفتوح على الناس، وهم في فُسحة وسَعَة عنها، ما لم تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت انسدَّ عليهم، فلم يُقبل منهم إيمان ولا توبة؛ لأنهم إذا عاينوا ذلك اضطروا إلى الإيمان والتوبة، فلا ينفعهم ذلك كما لا ينفع المحتضر .

قال ابن حجر -رحمه الله- بعد أنْ ذكر آثارًا تدل على استمرار إغلاق باب التوبة بعد طلوع الشمس من مغربها:

فهذه آثار يشد بعضها بعضًا متفقة على أنَّ الشمس إذا طلعت من المغرب أُغلق باب التوبة، ولم يُفتح بعد ذلك، وأنَّ ذلك لا يختص بيوم الطلوع، بل يمتد إلى يوم القيامة.

فائدة : ٢

الحكمة من عدم قبول التوبة إذا طلعت الشمس من مغربها .

قال ابن الجوزي: وإنما لم ينفع الإيمان والعمل الصالح حينئذ لظهور الآية التي تضطرهم إلى الإيمان.

وقال القرطبي: قال العلماء: وإنما لا ينفع نفساً إيمانُها عند طلوعها من مغربها؛ لأنه خلص إلى قلوبهم من الفزع ما تُخْمَدُ معه كلّ شهوة من شهوات النفس، وتَفْتُرُ كلّ قوّة من قوى البدن؛ فيصير الناس كلهم لإيقانهم بدُنُو القيامة في حال من حضره الموت في

انقطاع الدّواعي إلى أنواع المعاصي عنهم، وبطلانها من أبدانهم؛ فمن تاب في مثل هذه الحال لم تُقبل توبته، كما لا تُقبل توبة من حضره الموت.

وقال ابن كثير : فهَذِه الأحاديثُ الْمُتَواتِرةُ مَعَ الآيةِ الكَرِيمةِ دَليلٌ على أنَّ من أحدَثَ إيمانًا أو توبةً بَعدَ طُلوعِ الشَّمسِ من مَغرِبِها، لا تُقبَلُ مِنه، وإنَّما كان كذلك -والله أعلَمُ- لأنَّ ذلك من أكبَرِ أشراطِ السَّاعةِ وعَلاماتِها الدَّالَّةِ على اقترابِها ودُنُوِّها، فعُومِلَ ذلك الوَقتُ مُعامَلةَ يَومِ القيامةِ، كما قال تعالى (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ) ، وقال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ) .

وقال ابن حجر -رحمه الله- الحكمة في ذلك: أنَّ هذا أول ابتداء قيام الساعة بتغير العالم العلوي، فإذا شوهد ذلك، حصل الإيمان الضروري بالمعاينة، وارتفع الإيمان بالغيب، فهو كالإيمان عند الغرغرة، وهو لا ينفع، فالمشاهدة لطلوع الشمس من المغرب مثله .

وقال السعدي: والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أقلع عما هو فيه كما قال تعالى (فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ).

فائدة : ٣

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- مذهب أهل السنة: حَمْلُ طلوع الشمس من مغربها وغيرها من الآيات على ظاهرها؛ إذ لا إحالة فيها، وهي أمور ممكنة في نفسها، وقد تظاهرت الأخبار الصحيحة بها مع كثرتها وشهرتها، فيجب التصديق بها، ولا يلتفت لشيء من تأويلات المبتدعة لها. (المفهم)

فائدة : ٤

وقال ابنُ حَجَرٍ: الذي يَتَرَجَّحُ من مَجموعِ الأخبارِ أنَّ خُروجَ الدَّجَّالِ أوَّلُ الآياتِ العِظامِ الْمُؤذِنُ بتَغَيُّرِ الأحوالِ العامَّةِ في مُعظَمِ الأرضِ، ويَنتَهي ذلك بمَوتِ عيسى بن مَريَمَ، وأنَّ طُلوعَ الشَّمسِ مِنَ الْمَغرِبِ هو أوَّلُ الآياتِ العِظامِ الْمُؤذِنُ بتَغَيُّرِ أحوالِ العالَمِ العُلويِّ، ويَنتَهي ذلك بقيامِ السَّاعةِ، ولَعَلَّ خُروجَ الدَّابَّةِ يَقَعُ في ذلك اليَومِ الذي تَطلُعُ فيه الشَّمسُ من الْمَغرِبِ، وقَد أخرَجَ مُسْلِمٌ أيضًا من طَريقِ أبي زُرعةَ عَن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَفَعَه (أوَّلُ الآياتِ طُلوعُ الشَّمسِ من مَغرِبِها، وخُروجُ الدَّابَّةِ على النَّاسِ ضُحًى، فأيُّهما خَرَجَت قَبلَ الأُخرى، فالأُخرى مِنها قَريبٌ) .

٦-خامس هذه العلامات : نزول عيسى بن مريم .

الحديث دليل على أن نزول عيسى بن مريم من علامات الساعة الكبرى .

ومن الأدلة :

قال تعالى (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ) .

قال البَغَويُّ: (وَإِنَّهُ) يَعني عيسى عليه السلام (لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ) يَعني: نُزولُه من أشراطِ السَّاعةِ يُعلَمُ به قُربُها، وقَرَأ ابنُ عَبَّاسٍ وأبو هُرَيرةَ وقَتادةُ: (وإنَّه لَعَلَمٌ للسَّاعةِ) -بفَتحِ اللَّامِ والعين- أي: أمارةٌ وعَلامةٌ .

وقال السَّعديُّ: (وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَة) أي: وإنَّ عيسى عليه السلام لدَليلٌ على السَّاعةِ، وأنَّ القادِرَ على إيجادِه من أمٍّ بلا أبٍ قادِرٌ على بَعثِ الْمَوتى من قُبورِهم، أو إنَّ عيسى عليه السلام سَيَنزِلُ في آخِرِ الزَّمانِ، ويَكونُ نُزولُه عَلامةً من عَلاماتِ السَّاعةِ .

وقال تعالى (وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا) .

(وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ) يعني وما من أحد من أهل الكتاب (إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ) أي: بعيسى، وهذا قول أكثر المفسرين وأهل العلم.

(قَبْلَ مَوْتِهِ) اختلف العلماء في مرجع الضمير؟

فقيل: (قَبْلَ مَوْتِهِ) أي: قبل موت عيسى عليه السلام .

واختار هذا القول ابن جرير وابن كثير وغيرهما.

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال: وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى.

ورجحه ابن كثير وقال: ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير رحمه الله هو الصحيح؛ لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه، وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما شبه لهم فقتلوا الشبيه وهم لا يتبينون ذلك، ثم إنه رفعه إليه، وإنه باق حي، وإنه سينزل قبل يوم القيامة، كما دلت عليه الأحاديث المتواترة –التي سنوردها إن شاء الله قريباً– فيقتل مسيح الضلالة، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية –يعني: لا يقبلها من أحد من أهل الأديان، بل لا يقبل إلا الإسلام أو السيف .

وقال الخازن: وذهب جماعة من أهل التفسير إلى أن الضمير يرجع إلى عيسى عليه السلام وهو رواية عن ابن عباس أيضاً والمعنى وما من أحد من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى وذلك عند نزوله من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتابين إلاّ من آمن بعيسى حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام.

وقال الشوكاني: وقد اختار كون الضميرين لعيسى ابن جرير، وقال به جماعة من السلف، وهو الظاهر، والمراد الإيمان به عند نزوله في آخر الزمان، كما وردت بذلك الأحاديث المتواترة.

وعَن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه قال: قال رَسولُ الله ﷺ (والذي نَفسي بيدِه، ليوشِكَنَّ أن يَنزِلَ فيكم ابنُ مَريَم حَكَمًا عَدلًا، فيَكسِرَ الصَّليبَ، ويَقتُلَ الخِنزيرَ، ويَضَعَ الجِزْيةَ، ويَفيضَ الْمالُ حَتَّى لا يَقبَلَه أحَدٌ، حَتَّى تَكونَ السَّجدةُ الواحِدةُ خَيرًا مِنَ الدُّنيا وما فيها). متفق عليه

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: (كَيْفَ أَنْتُمْ إذا نَزَلَ ابن مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ؟) متفق عليه .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ على الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) قال: (فَيَنْزِلُ عِيسَى بن مَرْيَمَ ﷺ فيقول أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لنا. فيقول: لَا؛ إِنَّ بَعْضَكُمْ على بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ اللَّهِ هذهِ الْأُمَّةَ). رواه مسلم

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (وَالَّذِي نَفْسِي بيده؛ لَيُهِلَّنَّ ابنُ مَرْيَمَ بِفَجِّ الرُّوحاءِ ؛ حَاجًّا، أو مُعْتَمِرًا، أو لَيَثْنِيَنَّهُمَا). رواه مسلم

وعن النَّواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذَكَرَ رسول الله ﷺ الدَّجَّالَ ذاتَ غَدَاةٍ ... الحديث. وفيه: (فَبَيْنَما هُمْ كَذلِكَ –أي بينما الشاب الذي ضربه الدجال بالسيف فقطعه جَزْلَتَيْن، ثمّ دَعَاهُ، فأقبلَ ووجهُه يتهلّل من الضحك سُخْريةً بالدجال– إِذْ بَعَثَ الله الْمَسِيحَ ابنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بين مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعًا كَفَّيْهِ على أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ؛ إذا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وإذا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ منه جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ. فلا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إلا مَاتَ ..) رواه مسلم .

قال القاضي عياض: ونزول عيسى المسيح وقتله الدّجَّالَ حقٌّ صحيح عند أهل السنة؛ لصحيح الآثار الواردة في ذلك؛ ولأنه لم يَرِدْ ما يُبطِلُه ويضعِّفُه .

وقال ابن كثير: تواترات الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنّه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمامًا عادلًا وحكمًا مقسطًا.

وقال السفَّاريني -رحمه الله-: وأما الإجماع، فقد أَجْمعت الأمّة على نزوله، ولم يخالف فِيْه أحدٌ من أهل الشريعة. وإنما أنكر ذلك الفلاسفةُ والملاحدة .

فائدة : ١

نزوله :

بعد خروج الدَّجَّال، وإفساده في الأرض، يبعث الله عيسى عليه السلام، فينزل إلى الأرض، ويكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق الشّام .

قال ابن كثير: هذا هو الأشهر في موضع نزوله أنّه على المنارة البيضاء الشرقية بدمشق .

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (... فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد نفسه إلا مات ...) .

فائدة : ٢

الحكمة من نزوله دون سائر الأنبياء ؟

قيل: الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه.

وقيل: أن عيسى وجد في الإنجيل فضل أمة محمد ﷺ فدعا الله أن يجعله فيهم، فاستجاب الله دعاءه.

وقيل: أن نزول عيسى عليه السلام من السماء لدنو أجله، ليدفن في الأرض، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها.

ورجح الحافظ ابن حجر القول الأول.

فائدة : ٣

يحكم عيسى عليه السلام بالشريعة المحمَّدِيَّة، ويكون من أتباع محمَّد صلى الله عليه وسلم، فإنّه لا ينزل بشرع جديد؛ لأنَّ دينَ الإسلام خاتمُ الأديان، وباقٍ إلى قيام السّاعة، لا ينسخ .

كما قال ﷺ (والذي نَفسي بيدِه، ليوشِكَنَّ أن يَنزِلَ فيكم ابنُ مَريَم حَكَمًا عَدلًا ..ويضع الجزية) .

قال النووي رحمه الله تعالى: وقوله ﷺ (حَكَمًا) أي ينزل حاكما بهذه الشريعة، لا ينزل نبيا برسالة مستقلة وشريعة ناسخة؛ بل هو حاكم من حكام هذه الأمة ... والمقسط العادل، يقال: أقسط يقسط إقساطا، فهو مقسط: إذا عدل .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: قوله (حَكَمًا) أي: حاكماً. والمعنى: أنه ينزل حاكماً بهذه الشريعة؛ فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ، بل يكون عيسى حاكماً من حكام هذه الأمة .

وقوله ﷺ (... فيَكسِرَ الصَّليبَ، ويَقتُلَ الخِنزيرَ، ويَضَعَ الجِزْيةَ) .

معنى هذه الجملة؛ أنه يخيّر أهل الكتاب بين الإسلام أو القتل، ولا يقبل منهم البقاء على الكفر مقابل دفع الجزية.

قال النووي رحمه الله تعالى : (ويضع الجزية) فالصواب في معناه: أنه لا يقبلها ولا يقبل من الكفار إلا الإسلام، ومن بذل منهم الجزية ، لم يكفَّ عنه بها ؛ بل لا يقبل إلا الإسلام أو القتل، هكذا قاله الإمام أبو سليمان الخطابي وغيره من العلماء رحمهم الله تعالى . (شرح مسلم)

وقال **بدر الدين العيني** رحمه الله تعالى : قوله (وَيَضَعَ الجِزْيَةَ) أي: يتركها فلا يقبلها، بل يأمرهم بالإسلام.

فإن قلت: هذا يخالف حكم الشرع، فإن الكتابي إذا بذل الجزية، وجب قبولها، فلا يجوز بعد ذلك إكراهه على الإسلام ولا قتله؟

قلت: هذا الحكم الذي كان بيننا ، ينتهي بنزول عيسى عليه السلام .

فإن قلت: هذا يدل على أن عيسى عليه السلام، ينسخ الحكم الذي كان في شرعنا، والحال أنه تابع لشرع نبينا ﷺ قلت: ليس هو بناسخ، بل نبياً ﷺ هو الذي بيّن بالنسخ. وأن عيسى عليه السلام، يفعل ذلك بأمر نبياً ﷺ . (عمدة القاري)

فائدة : ٤

مدة بقاء عيسى عليه السلام إذا نزل :

ففي بعض الروايات أنه يمكث سبع سنين .

وفي الروايات الأخرى أنه يمكث أربعين عاما ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون .

ففي حديث أَبِي هُرَيْرَةَ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (الْأَنْبِيَاءُ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى ، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ ، وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ نَازِلٌ ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَاعْرِفُوهُ ، فَإِنَّهُ رَجُلٌ مَرْبُوعٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ ، كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ ، وَإِنْ لَمْ يُصِبْهُ بَلَلٌ ، وَإِنَّهُ يَدُقُّ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ وَيُفِيضُ الْمَالَ ، وَيُقَاتِلُ النَّاسَ عَلَى الْإِسْلَامِ ، حَتَّى يُهْلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِمَارَتِهِ الْمِلَلَ كُلَّهَا غَيْرَ الْإِسْلَامِ ، وَحَتَّى يُهْلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِمَارَتِهِ مَسِيحَ الضَّلَالَةِ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ ، وَتَقَعُ الْأَمَنَةُ فِي الْأَرْضِ ، حَتَّى يَرْعَى الْأَسَدُ مَعَ الْإِبِلِ ، وَالنَّمِرُ مَعَ الْبَقَرِ ، وَالذِّئَابُ مَعَ الْغَنَمِ ، وَتَلْعَبُ الصِّبْيَانُ بِالْحَيَّاتِ لَا يَضُرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، **يَلْبَثُ أَرْبَعِينَ سَنَةً ، ثُمَّ يُتَوَفَّى ﷺ، وَيُصَلِّي عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ**) رواه أبو داود .

وجاء في صحيح مسلم : عن عبد الله بن عمرو قال : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي أُمَّتِي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ – لَا أَدْرِي: أَرْبَعِينَ يَوْمًا، أَوْ أَرْبَعِينَ شَهْرًا، أَوْ أَرْبَعِينَ عَامًا فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ، **ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ** ، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّأْمِ ، فَلَا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ ...) رواه مسلم .

وقد جمع بينهما أهل العلم بعدة طرق ، كما يلي :

الأولى : أن مدة حياة عيسى عليه السلام في الأرض ، منذ أن ولد إلى أن يموت : أربعون سنة ، عاش منها قبل أن يرفع إلى السماء ثلاثا وثلاثين ، ثم يعيش بعد أن ينزل إلى الأرض سبع سنين ، فتكون رواية الأربعين المقصود بها مدة حياته جميعا ، ورواية السبع المقصود بها مدة بقائه بعد نزوله .

قال ابن كثير : وقد وقع في الحديث: أنه يمكث أربعين سنة، وثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو (أنه يمكث في الأرض سبع سنين) فهذا مع هذا مشكل، اللهم إلا إذا حملت هذه السبع على مدة إقامته بعد نزوله، وتكون مضافة إلى مدة مكثه فيها قبل رفعه إلى السماء، وكان عمره إذ ذاك ثلاثا وثلاثين سنة على المشهور، والله أعلم .

وسئل ابن حجر الهيتمي رحمه الله : كم يُقيم عِيسَى عليه السلام بعد نُزُوله؟

فَأجَاب : يُقيم سبع سِنِين ، كَمَا صَحَّ فِي حَدِيث مُسلم ... وَلَا يُنَافِيهِ حَدِيث الطيالسي أَنه يُقيم أَرْبَعِينَ سنة. لِأَن المرَاد مَجْمُوع لبثه فِي الأَرْض قبل الرّفْع وَبعده؛ فَإِنَّهُ رفع وَسنه ثَلَاث وَثَلَاثُونَ سنة .

لكن هذا الجمع : منتقد بأنه لا ذكر لمدة عيسى وحياته الأولى ، في شيء من روايات الحديث ، ولا مناسبة لها في سياقاته ، حتى يحمل عليها ذلك . وبأن في نفس الروايات ما يضعف هذا الجمع .

قال السفاريني رحمه الله : وَجَمَعَ بَعْضُهُمْ أَنَّ سَيِّدَنَا عِيسَى حِينَ رُفِعَ كَانَ عُمْرُهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَيَنْزِلُ سَبْعًا فَهَذِهِ أَرْبَعُونَ سَنَةً. وَهَذَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، لَيْسَ بِشَيْءٍ ؛ لِمَا مَرَّ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ عِنْدَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ : (فَيَقْتُلُ الدَّجَّالَ ثُمَّ يَمْكُثُ عِيسَى فِي الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ سَنَةً) .

وَقَدْ قَالَ الْحَافِظُ جَلَالُ الدِّينِ السُّيُوطِيُّ : كُنْتُ أَفْتَيْتُ بِأَنَّ ابْنَ مَرْيَمَ يَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ نُزُولِهِ سَبْعَ سِنِينَ، قَالَ وَاسْتَمَرَّيْتُ عَلَى ذَلِكَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ حَتَّى رَأَيْتُ الْإِمَامَ الْحَافِظَ الْبَيْهَقِيَّ اعْتَمَدَ أَنَّ مُكْثَهُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعُونَ سَنَةً ، مُعْتَمِدًا مَا أَفَادَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي رِوَايَتِهِ بِلَفْظِ " ثُمَّ يَمْكُثُ ابْنُ مَرْيَمَ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ قَتْلِ الدَّجَّالِ أَرْبَعِينَ سَنَةً ". وَهَذَا هُوَ المرجح؛ لِأَنَّ زِيَادَةَ الثِّقَةِ يُحْتَجُّ بِهَا، وَلِأَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ بِرِوَايَةِ الْأَكْثَرِ وَيُقَدِّمُونَهَا عَلَى رِوَايَةِ الْأَقَلِّ لِمَا مَعَهَا مِنْ زِيَادَةِ الْعِلْمِ، وَلِأَنَّهُ مُثْبَتٌ وَالْمُثْبَتُ مُقَدَّمٌ. انْتَهَى .

الثانية : أن مدة بقائه بعد نزوله الأرض أربعون سنة ، وأما السبع سنوات المذكورة في حديث مسلم ، فهي مدة مكث الناس في الأرض بعد موت عيسى عليه السلام .

وذلك لأن رواية مسلم والتي فيها قوله :"فَيَبْعَثُ اللهُ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ كَأَنَّهُ عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ، فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ"، وقد قد جاءت هذه الجملة عند أحمد في المسند بلفظ (ثُمَّ يَلْبَثُ النَّاسُ بَعْدَهُ سِنِينَ سَبْعًا ، لَيْسَ بَيْنَ اثْنَيْنِ عَدَاوَةٌ) فكلمة "بعده": تبين أن هذه مدة مكث الناس بعد موت عيسى وليست هي مدة مكث عيسى عليه السلام .

قال ابن علان رحمه الله : (ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة) يحتمل أنها المدة الخالصة من الأكدار البتة في زمن عيسى عليه السلام .

الثالثة : قيل في الجمع بين المدتين : أنه يمكث أربعين سنة وهذه السبع منها ، ولكنها فترة بقاء عيسى مع المهدي ، أي يمكث عيسى مع المهدي سبع سنين ، ثم يموت المهدي ، ويبقى عيسى بعده ثلاثة وثلاثين سنة تمام الأربعين .

وهذا قول الشيخ محمد أنور الكشميري حيث قال في "فيض الباري" أمَّا مُكْثُهُ عليه الصلاة والسلام بعد النزول ، فالصوابُ عندي فيه أربعون سنةً ، كما عند أبي داود: فيَمْكُثُ في الأرض أربعين سنةً ، ثم يتوفَّى ، فيصلِّي عليه المسلمون . اهـ

وأمَّا ما تُوهِمُهُ رواية مسلم: أنه يَمْكُثُ في الأرض سبع سنين ، فهو مدَّة مُكْثِهِ مع الإمام المهدي". انتهى .

فائدة : ٥

تفسير قوله تعالى (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...) .

اختلف المفسرون في قوله (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ).

لأن عيسى لم يمت بل رفع كما قال تعالى (وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً).

وقوله تعالى (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ).

فقيل: المراد بالوفاة هنا النوم.

وهذا قول الربيع بن أنس، والحسن وغيرهم، وعزاه ابن كثير والشوكاني للأكثرين.

قال ابن كثير: وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: النوم. واستدلوا:

بقوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ).

وقوله تعالى (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

وكان ﷺ إذا قام من النوم يقول (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور) رواه البخاري.

وقيل: إن الوفاة هنا بمعنى: القبض، أي: قابضك من الأرض، فرافعك إليّ.

وهذا قول جمهور المفسرين. واستدلوا:

بقوله تعالى (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ).

قال البغوي: أي قبضتني إلى السماء وأنا حي، لأن قومه إنما تنصروا بعد رفعه إلى السماء لا بعد موته .

قال الشنقيطي: ... الوجه الثالث: أنّ (مُتَوَفِّيكَ) اسم فاعل توفاه إذا قبضه وحازه إليه ومنه قولهم: (توفّى فلان دينه) إذا قبضه إليه .. فيكون معنى (مُتَوَفِّيكَ) على هذا قابضك منهم إلي حيا، وهذا القول هو اختيار بن جرير، ... ثم قال رحمه الله: وأما الجمع بأنه توفّاه ساعات أو أياما ثم أحياه فالظاهر أنه من الإسرائيليات، وقد نهى ﷺ عن تصديقها وتكذيبها.

٧–سادس هذه العلامات : يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ .

الحديث دليل على أن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى .

ومن الأدلة :

قوله تعالى (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ. وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) .

وقال تعالى في سياقه لقصة ذي القرنين (ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا. حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا. قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا. قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا. آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا. فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا. قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا. وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا) .

فهذه الآيات تدلُّ على أن الله تعالى سخَّر ذا القرنين الملك الصالح لبناء السدِّ العظيم؛ ليحجز بين يأجوج ومأجوج القوم المفسدين في الأرض وبين النَّاس، فإذا جاء الوقت المعلوم، واقتربت السّاعة؛ اندكَّ هذا السدُّ، وخرج يأجوج ومأجوج بسرعة عظيمة، وجمعٍ كبير، لا يقف أمامه أحدٌ من البشر، فماجوا في النَّاس، وعاثوا في الأرض فسادًا.

وهذا علامةٌ على قرب النفخ في الصور، وخراب الدنيا، وقيام السّاعة؛ كما سيأتي بيان ذلك في الأحاديث الثابتة.

عن زينب بنت جحش (أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فَزِعًا يقول: "لا إله إلَّا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه (وحلَّق بأصبعيه الإبهام والتي تليها) ". قالت زينب بنت جحش: فقلت: يا رسول الله! أفنهلِكُ وفينا الصالحون؟ قال: "نعم؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ) متفق عليه .

وعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ . قال : قال ﷺ (... فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ. وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ ...) رواه مسلم .

فائدة : ١

أصلهم من البشر من ذرية آدم وحواء.

لحديث أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ (يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار، قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعند ذلك يشيب الصغير (وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) قالوا: يا رسول الله! وأينا ذلك الواحد، قال: أبشروا، فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً ...) متفق عليه.

قال ابن كثير: هم من ذرية آدم بلا خلاف نعلمه، ثم ذكر الحديث السابق.

وقال: وهم يشبهون الناس، كأبناء جنسهم، ومن زعم أن منهم الطويل كالنخلة ومنهم القصير الذي هو كالشيء الحقير ومنهم من يفترش أذناً من أذنيه ويتغطى بالأخرى، فكل هذه الأقوال بلا دليل، ورجم بالغيب بغير برهان، والذي تدل عليه الروايات الصحيحة أنهم رجال أقوياء لا طاقة لأحد بقتالهم.

ففي حديث النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ (... فبينما هم كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يُدان لأحد بقتالهم ...) رواه مسلم.

فائدة : ٢

تفسير قوله تعالى (حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) .

(حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ) أي: حتى إذا فُتِحَ السَّدُّ الذي حُبِسَ وراءَه قَبيلَتا يأجوجَ ومأجوجَ، فخَرَجوا منه.

قال القرطبي: وفي الكلام حذف، أي حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج، مثل "وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ".

وقال ابن عاشور: ... ففتح يأجوج ومأجوج هو فتح السدّ الذي هو حائل بينهم وبين الانتشار في أنحاء الأرض بالفساد، وهو المذكور في قصة ذي القرنين في سورة الكهف ... وتوقيت وعد الساعة بخروج يأجوج ومأجوج أن خروجهم أول علامات اقتراب القيامة.

(**وَهُم)** أكثر المفسرين أن (وَهُم) كناية عن يأجوج ومأجوج.

واختاره: الواحدي، والطبري، والسمرقندي، والرازي، والقرطبي، والخازن، والشوكاني، وهو قول جمهور المفسرين.

قال الرازي: أكثر المفسرين إنه كناية عن يأجوج ومأجوج.

وقال القرطبي: إنهم يأجوج ومأجوج وهو الأظهر.

(مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ) أي: وهم لكثرتهم من كل مرتفع من الأرض ومن كل أكمة وناحية يسرعون النزول.

والمراد أن يأجوج ومأجوج لكثرتهم يخرجون من كل طريق للفساد في الأرض.

وقال السَّعدي: ينفَتِحُ السَّدُّ عنهم، فيَخرُجونَ إلى النَّاسِ في هذه الحالةِ والوَصفِ الذي ذكره اللهُ مِن كُلِّ مكانٍ مُرتَفِعٍ، وهو الحَدَبِ، يَنْسِلُونَ أي: يُسرِعونَ. وفي هذا دَلالةٌ على كَثرَتِهم الباهرةِ، وإسراعِهم في الأرضِ؛ إمَّا بذواتِهم، وإمَّا بما خلَقَ اللهُ لهم من الأسبابِ التي تقَرِّبُ لهم البعيدَ، وتُسَهِّلُ عليهم الصَّعبَ، وأنَّهم يَقهَرونَ النَّاسَ، ويَعلُونَ عليهم في الدُّنيا، وأنَّه لا يَدَ لأحَدٍ بقِتالِهم.

(وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ) أي: اقترب يوم القيامة.

وفسّر اقتراب الوعد باقتراب القيامة، وسُمّيت وعداً لأن البعث سمّاه الله وعداً في قوله تعالى (كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين).

فخروج يأجوج ومأجوج علامة على قرب القيامة.

(فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا) أي: فإذا أبصارُ الكُفَّارِ مَفتوحةٌ لا تَطرِفُ؛ مِن شِدَّةِ ما يَرَونَه مِن أهوالٍ وأمورٍ عِظامٍ.

(يا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا) أي: ويقولون يا ويلنا اي يا حسرتنا وهلاكنا قد كنا في الدنيا في غفلة تامة عن هذا المصير المشئوم واليوم الرهيب.

قال ابن عاشور: ويَا وَيْلَنَا دعاءٌ على أنفسِهم مِن شدةِ ما لحِقَهم.

(بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ) أضربوا عن القول السابق، واخبروا بالحقيقة المؤلمة، والمعنى: لم نكن في غفلة حيث ذكرتنا الرسل ونبهتنا الآيات، بل كنا ظالمين لأنفسنا بالتكذيب وعدم الايمان.

قال أبو السعود: (بَلْ كُنَّا ظالمين) إضرابٌ عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة، أي لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذُرِ مكذّبين بها، أو ظالمين لأنفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب.

فائدة : ٣

بنى ذو القرنين سد يأجوج ومأجوج ليحجز بينهم وبين جيرانهم الذي استغاثوا به كما ذكر الله في القرآن أن وعد الله حق كائن لا محالة.

قال تعالى (حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً . قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً . فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً . قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً) .

(ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً) أي سلك طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب.

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ) وهما جبلان متناوحان، بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج.

قال بعض العلماء: أي بين الجبلين الذيْن سد ما بينهما.

– قال ابن جرير: والسد الحاجز بين الشيئين وهما هنا جبلان سُد ما بينهما، فرَدَم ذو القرنين حاجزاً.

واختلف في مكان هذا السد على أقوال لا يصح منها شيء، لأنه لم يرد في الكتاب والسنة تعيينه، فلا ينبغي الانشغال به.

(وَجَدَ مِن دُونِهِمَا) أي من ورائهما.

(قَوْماً) أمة من الناس.

(لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً) لكون لغتهم غريبة مجهولة، ولقلة فطنتهم.

قال الرازي: قرأ حمزة والكسائي (يفقهون) بضم الياء وكسر القاف على معنى لا يمكنهم تفهيم غيرهم والباقون بفتح الياء والقاف، والمعنى أنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم وما كانوا يفهمون اللسان الذي يتكلم به ذو القرنين.

وقال الماوردي: وفي (يَفْقَهُونَ) قراءتان:

إحداهما: بفتح الياء والقاف يعني أنهم لا يفهمون كلام غيرهم.

والقراءة الثانية: بضم الياء وكسر القاف، أي لا يفهم كلامهم غيرهم.

قال القرطبي: والقراءتان صحيحتان، فلا هم يفقهون من غيرهم ولا يفقِهون غيرهم.

وقال ابن عطية: قوله (لا يكادون يفقهون قولاً) عبارة عن بعد لسانهم عن ألسنة الناس، لكنهم فقهوا وأفهموا بالترجمة ونحوها.

وقال ابن الجوزي: وقيل: كلَّم ذا القرنين عنهم مترجِمون ترجموا.

(قَالُوا) أي هؤلاء القوم الذين لا يفهمون قولاً.

قيل: إن فهم ذي القرنين لكلامهم من جملة الأسباب التي أعطاه الله، وقيل: إنهم قالوا ذلك لترجمانهم.

(يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ) يأجوج ومأجوج قبيلتان من بني آدم من كما في الحديث (إن الله تعالى يقول: يا آدم أخرج بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة، ... إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج).

واختلفوا في كيفية إفسادهم في الأرض فقيل: كانوا يقتلون الناس وقيل كانوا يأكلون لحوم الناس وقيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون لهم شيئاً أخضر وبالجملة فلفظ الفساد محتمل لكل هذه الأقسام، والله أعلم بمراده.

قال ابن عطية: واختلف الناس في "إفسادهم" الذي وصفوهم به، فقال سعيد بن عبد العزيز: "إفسادهم": أكل بني آدم، وقالت فرقة " إفسادهم " إنما عندهم توقعاً، أي سيفسدون، فطلبوا وجه التحرز منهم، وقالت فرقة: "إفسادهم" هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، وهذا أظهر الأقوال، لأن الطائفة الشاكية إنما تشكت من ضرر قد نالها.

(فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً) أي أجراً عظيماً، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سداً.

(عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً) أي لتجعل سداً يحمينا من شر يأجوج ومأجوج.

(قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي) أي إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين.

(خَيْرٌ) لي من الذي تجمعونه لي.

كما قال سليمان (فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم).

وهكذا قال ذو القرنين: الذي أنا فيه خير من الذي تبذلونه.

قال القرطبي: المعنى قال لهم ذو القرنين: ما بسطه الله تعالى لي من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم ولكن أعينوني بقوّة الأبدان؛ أي برجال وعمل منكم بالأبدان، والآلة التي أبني بها الردم وهو السدّ، وهذا تأييد من الله تعالى لذي القرنين في هذه المحاورة؛ فإن القوم لو جمعوا له خرجاً لم يعنه أحد ولوكلوه إلى البنيان، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع في انقضاء هذا العمل، وربما أربى ما ذكروه له على الخرج.

ثم طلب المعاونه منهم:

(فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ) أي لا حاجة لي بالمال، فأعينوني بالأيدي والرجال.

(أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً) والردم هو: ما جعل بعضه على بعض حتى يصبح كالحجاب المنيع، فالردم أكبر من السد.

قال ابن عطية: و"الردم" أبلغ من السد، إذ السد كل ما سد به، و"الردم" وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع.

(آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ) أي أعطوني وناولوني زبر الحديد.

- زبر الحديد جمع زُبرة وهي القطعة منه.

(حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ) أي حتى إذا ساوى البناء بين جانبي الجبل.

قال ابن كثير: أي وضع بعضه على بعض من الأساس، حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً.

- الصدفين: جانبا الجبل.

- قال الرازي (والصدفان) بفتحتين جانبا الجبلين لأنهما يتصادفان أي يتقابلان.

(قَالَ انفُخُوا) أي قال للعملة انفخوا على هذه الزبر بالكيران.

(حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً) أي جعل ذلك المنفوخ فيه وهو الزبر ناراً: أي كالنار في حرها.

- وإسناد الجعل إلى ذي القرنين مجاز، لكونه الآمر بالنفخ.

(قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً) أي أعطوني أصب عليه النحاس المذاب.

- قطراً: القِطر: النحاس المذاب.

قال القرطبي: والقطر عند أكثر المفسرين النحاس المذاب، وأصله من القَطْر؛ لأنه إذا أذيب قطر كما يقطر الماء.

قال السعدي: فأفرغ عليه القِطر، فاستحكم السد استحكاماً هائلاً، وامتنع به مَنْ وراءه من الناس من شر يأجوج ومأجوج.

(فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً) قال ابن كثير: يقول تعالى عن يأجوج ومأجوج: إنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه، قابل كلاً بما يناسبه فقال (فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً) وهذا دليل على أنهم لم يقدروا على نقبه ولا على شيء منه.

قال البقاعي: (أن يظهروه) أي يعلو ظهره لعلوه وملاسته (وما استطاعوا له نقباً) لثخنه وصلابته.

قال القرطبي: (فَمَا اسطاعوا أَن يَظْهَرُوهُ) أي: ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه؛ لأنه أملس مستوٍ مع الجبل والجبل عالٍ لا يرام.

قال أبو حيان (فما اسطاعوا) أي يأجوج ومأجوج (أن يظهروه) أي: يصلوا عليه لبعده وارتفاعه وامّلاسه، ولا أن ينقبوه لصلابته وثخانته فلا سبيل إلى مجاوزته إلى غيرهم من الأمم إلاّ بأحد هذين: إما ارتقاء وإما نقب وقد سلب قدرتهم على ذلك.

(قَالَ هَذَا) أي هذا السد.

(رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي) بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث في الأرض والفساد.

قال السعدي: أي من فضله وإحسانه عليَّ، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ مع البعد العظيم، قال (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ) بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار، تزيدهم أشراً وبطراً. كما قال قارون –لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة– قال (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي).

(فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي) أي إذا اقترب الوعد الحق، وهو خروج يأجوج ومأجوج.

قال الطبري: فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي الَّذِي جَعَلَهُ مِيقَاتًا لِظُهُورِ هَذِهِ الأُمَّةِ وَخُرُوجِهَا مِنْ وَرَاءِ هَذَا الرَّدْمِ لَهُمْ، جَعَلَهُ دَكَّاءَ، يَقُولُ: سَوَّاهُ بِالأَرْضِ، فَأَلْزَقَهُ بِهَا، مِنْ قَوْلِهِمْ: نَاقَةٌ دَكَّاءُ: مُسْتَوِيَةُ الظَّهْرِ لاَ سَنَامَ لَهَا. وَإِنَّمَا مَعْنَى الْكَلاَمِ: جَعَلَهُ مَدْكُوكًا، فَقِيلَ: دَكَّاءُ.

وقال الشوكاني: (فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي) أي: أجل ربي أن يخرجوا منه، وقيل: هو مصدر بمعنى المفعول، وهو يوم القيامة.

(**جَعَلَهُ**) أي ذلك السد المحكم المتقن.

وقيل: (جاء وعد ربي) أي: يوم القيامة.

ويقويه قوله تعالى (ونفخ في الصور).

(**دَكَّاء**) أي دكه فانهدم واستوى على الأرض، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك.

قال ابن كثير: تقول العرب ناقة دكاء إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها، وقال تعالى (فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً).

(**وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً**) أي كائناً لا محالة.

٨-سابع هذه العلامات : ثَلاَثَةَ خُسُوفٍ خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ .

الحديث دليل على أن من أشراط الساعة الكبرى : ثلاثة خسوف : خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ .

قال الصنعاني : خسف: الذهاب في الأرض، مِن خَسَف المكانُ يَخسِف خسوفًا: ذهب في الأرض .

فائدة : ١

أين تقع الخسوفات :

أخبرنا النبي ﷺ أن الخسوفات -والتي هي من علامات الساعة- تقع في أماكن ثلاثة :

المكان الأول: جهة الشرق : والمراد به مشرق المدينة، ولا شك أن المقصود موضع بالمشرق وليس جميع أرجائه.

والمكان الثاني: جزيرة العرب، وليس بالضرورة أن يشمل جميع أرجائها بل ربما أتى على بعض قبائلها، كما جاء في "المسند" قال رسول الله ﷺ (لا تقوم الساعة حتى يخسف بقبائل فيقال من بقي من بني فلان) .

والمكان الثالث: جهة الغرب والمراد به غرب المدينة النبوية، والمقصود منه ليس عموم المغرب وإنما موضع منه .

فائدة : ٢

هذه الخسوفات لم تقع بعد .

مازالت الخسوفات تقع منذ بدء الخلق إلى يومنا هذا، فهي لم تنقطع عن الأرض منذ أن خُلِقت .

وقد أخبرنا سبحانه عن الخسف كعقوبة عاقب بها من عصى أمره، فقال سبحانه: (فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .

وعليه : فينبغي حمل الكلام النبوي عن هذه الخسوفات الثلاثة على معنى خاص، وقدر زائد تختلف به هذه الخسوفات عن مثيلاتها .

قال ابن حجر: وقد وجد الخسف في مواضع، ولكن يحتمل أن يكون المراد بالخسوف الثّلاثة قدرًا زائدًا على ما وُجد، كأن يكون أعظم منه مكانًا أو قدراً .

وقال علي القاري: (وثَلاثة خُسوفٍ) قال ابنُ الْملكِ: قَد وُجِدَ الخَسفُ في مَواضِعَ، لَكِن يُحتَمَلُ أن يَكونَ الْمُرادُ بالخُسوفِ الثَّلاثةِ قَدْرًا زائِدًا على ما وُجِدَ، كأن يَكونَ أعظَمَ مَكانًا وقَدْرًا (خَسْفٌ بالمشرِقِ، وخَسْفٌ بالمغرِبِ، وخَسْفٌ بجَزيرةِ العَرَبِ) .

وقال الصَّنعانيُّ: ولَعَلَّ هَذِه الخُسوفَ الثَّلاثةَ لَم تَقَعْ إلى الآنَ، واللهُ أعلَمُ .

فائدة : ٣

الخسوفات تقع بسبب المعاصي والسيئات .

أخبرنا ﷺ أن هذه الخسوفات الثلاثة تكون عقوبة ربانية على ظهور المعاصي وانتشارها .

عن عائشة – رضي الله عنها – عن النبي ﷺ أنه قال: (يكون في آخر هذه الآمة خسف ومسخ وقذف، قالت: قلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال: نعم إذا ظهر الخبث) رواه الترمذي .

وعن عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذاك ؟ قال: إذا ظهرت القينات والمعازف وشربت الخمور) رواه الترمذي .

فائدة : ٤

كان النبي ﷺ يستعيذ من الخسف لأنه عذاب .

فعَنِ ابْنِ عُمَرَ –رَضِيَ اَللَّهُ عَنْهُمَا– قَالَ (لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ اَلْكَلِمَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ: اَللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ اَلْعَافِيَةَ فِي دِينِي، وَدُنْيَايَ، وَأَهْلِي، وَمَالِي، اَللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي .. قال وكيعٌ: يعني الخَسْفَ) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ، وَابْنُ مَاجَهْ، وأبو داود .

٩–وثامن هذه العلامات : نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ .

الحديث دليل على أن من أشراط الساعة الكبرى : نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم .

فائدة : ١

ففي هذا الحديث أنها تخرج (من اليمن) وفي رواية لمسلم (من قعر عدن) .

وروى الإمام أحمد والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ (ستخرج نارٌ من حضرموت أو من بحر حضرموت، قبل يوم القيامة، تحشر النَّاس) .

وروى الإمام البخاريّ عن أنس ﷺ أن عبد الله بن سلام لما أسلم سأل النّبيّ ﷺ عن مسائل، ومنها: ما أول أشراط السّاعة؟ فقال النّبيّ ﷺ : أمّا أول أشراط السّاعة؛ فنار تحشر النَّاس من المشرق إلى المغرب .

قال الحافظ ابن حجر : وَقَدْ أَشْكَلَ الْجَمْعُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَخْبَارِ ؟

وَظَهَرَ لِي فِي وَجْهِ الْجَمْعِ : أَنَّ كَوْنَهَا تَخْرُجُ مِنْ قَعْرِ عَدَنَ ، لَا يُنَافِي حَشْرَهَا النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمُغْرِبِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ ابْتِدَاءَ خُرُوجِهَا مِنْ قَعْرِ عَدَنَ ، فَإِذَا خَرَجَتِ : انْتَشَرَتْ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا .

وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : تَحْشُرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ : إِرَادَةُ تَعْمِيمِ الْحَشْرِ ؛ لَا خُصُوصِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .

أَوْ : أَنَّهَا ، بَعْدَ الِانْتِشَارِ : أَوَّلَ مَا تَحْشُرُ أَهْلَ الْمَشْرِقِ . وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَنَّ ابْتِدَاءَ الْفِتَنِ دَائِمًا مِنَ الْمَشْرِقِ، كَمَا سَيَأْتِي تَقْرِيرُهُ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ .

وَأَمَّا جَعْلُ الْغَايَةِ إِلَى الْمَغْرِبِ : فَلِأَنَّ الشَّامَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَشْرِقِ : مَغْرِبٌ . (الفتح)

فائدة ٢

جاء في النهاية في الفتن والملاحم : وهذه النار تسوق الموجودين في آخر الزمان من سائر أقطار الأرض إلى أرض الشام منها وهي بقعة المحشر والنشر. اهـ

فائدة : ٣

هذا الحشر يكون قبل انتهاء الدنيا وقيام الساعة .

وهذا القول هو الذي رجحه : البغوي في "شرح السنة"، والقاضي عياض في "إكمال المعلم"، والخطابي في "أعلام الحديث"، والقرطبي في "التذكرة"، وابن رجب في "لطائف المعارف"، وابن كثير في "النهاية في الفتن والملاحم" .

عن أبي هُرَيرةَ ﷺ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قال (يُحشَرُ النَّاسُ على ثَلاثِ طَرائِقَ راغِبينَ راهِبينَ، واثنانِ على بَعيرٍ، وثَلاثة على بَعيرٍ، وأربَعة على بَعيرٍ، وعَشَرةً على بَعيرٍ، ويَحشُرُ بَقيَّتَهم النَّارُ، تَقِيلُ مَعَهم حَيثُ قالوا، وتَبِيتُ مَعَهم حَيثُ باتوا، وتُصبِحُ مَعَهم حَيثُ أصبَحوا، وتُمسي مَعَهم حَيثُ أمسَوا) متفق عليه .

ففي هذا الحديث : بيان أن النار : تبيت وتقيل وتصبح وتمسي معهم ، وهذا لا يكون إلا في الدنيا .

قال الخَطابيُّ: الحَشْرُ الْمَذكورُ في هذا الحَديثِ إنَّما يَكونُ قَبلَ قيامِ السَّاعةِ، يُحشَرُ النَّاسُ أحياءً إلى الشَّامِ، فأمَّا الحَشْرُ الذي يَكونُ بَعدَ البَعثِ مِنَ القُبورِ، فإنَّه على خِلافِ هَذِه الصُّورةِ من رُكوبِ الإبِلِ والمعاقَبةِ عليها، إنَّما هو على ما ورَدَ في الخَبَرِ أنَّهم يُبعَثونَ يَومَ القيامةِ حُفاةً عُراةً بُهْمًا غُرْلًا، وقَد قيلَ: إنَّ هذا البَعثَ دونَ الحَشْرِ، فلَيسَ بينَ الحَديثين تَدافُعٌ، ولا تَضادٌّ.

وقَولُه: وعَشَرةٌ على بَعيرٍ، يَعني أنَّهم يَعتَقِبونَ البَعيرَ الواحِدَ، يركَبُ بَعضُهم ويَمشي الباقونُ عَقبًا بينَهم) .

وقال القاضي عياض: هذا الحشر هو في الدنيا قبيل قيام الساعة، وهو آخر أشراطها كما ذكره مسلم بعد هذا في آيات الساعة، قال فيه: (وآخر ذلك نار تخرج من قعر عدن ترحل الناس) وفى رواية: (تطرد الناس إلى محشرهم) وفى حديث آخر: (لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز) ويدل أنها قبل القيامة .

وقال البغوي : قَوْله (يحْشر النَّاس عَلَى ثَلاث طرائق) هَذَا الْحَشْر قَبْلَ قيام السَّاعَة ، إِنَّمَا يَكُون إِلَى الشَّام أَحيَاء ، فَأَما الْحَشْر بَعْد الْبَعْث من الْقُبُور عَلَى خلاف هَذِهِ الصّفة من رُكُوب الْإِبِل والمعاقبة عَلَيْهَا ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا أخبر أَنهم يبعثون حُفَاة عُرَاة .

وقال النَّوَويُّ: قال العُلَماءُ: وهذا الحَشْرُ في آخِرِ الدُّنيا قُبَيلَ القيامةِ وقُبَيلَ النَّفخِ في الصُّورِ، بدَليلِ قَولِه ﷺ: (تَحْشُرُ بَقِيَّتَهم النَّارُ تَبِيتُ مَعَهم وتَقيلُ وتُصبِحُ وتُمسي) وهذا آخِرُ أشراطِ السَّاعةِ، كما ذَكَرَ مُسْلِمٌ بَعدَ هذا في آياتِ السَّاعةِ، قال (وآخِرُ ذلك نارٌ تَخرُجُ من قَعرِ عَدَنٍ تُرَحِّلُ النَّاسَ). وفي رِوايةٍ: (تَطرُدُ النَّاسَ إلى مَحْشَرِهم) والمرادِ بثَلاثِ طَرائِقَ ثَلاثُ فِرَقٍ، ومِنه قَولُه تعالى إخبارًا عَنِ الجِنِّ: كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا أي: فِرَقًا مُختَلِفةَ الأهواءِ .

وقال ابنُ كثيرٍ بَعدَ ذِكرِ الأحاديثِ الواردةِ في خُروجِ النَّارِ: فهَذِه السِّياقاتُ تَدُلُّ على أنَّ هذا الحَشْرَ هو حَشْرُ الْمَوجودينَ في آخِرِ الدُّنيا من أقطارِ الأرضِ إلى مَحَلَّةِ الْمَحْشَرِ، وهيَ أرضُ الشَّامِ... وهذا كُلُّه ممَّا يَدُلُّ على أنَّ هذا إنَّما يَكونُ في آخِرِ الزَّمانِ آخِرِ الدُّنيا؛ حَيثُ يَكونُ الأكلُ والشُّربُ والرُّكوبُ مَوجودًا، والمشتَرى وغَيرُه، وحَيثُ تُهلِكُ الْمُتَخَلِّفين مِنهم النَّارُ، ولَو كان هذا بَعدَ نَفخةِ البَعثِ لَم يَبْقَ مَوتٌ، ولا ظَهَرَ مشتَرى، ولا أكلٌ ولا شُربٌ، ولا لُبْس في العَرَصاتِ .

١٠-الحكمة من أشراط الساعة .

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: والحكمة في تقدم الأشراط -أشراط الساعة- إيقاظ الغافلين، وحثهم على التوبة والاستعداد. الفتح

وقد أخفى الله أمر الساعة، كما قال الألوسي رحمه الله؛ لأنه : أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية . انتهى .

فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه جعل لهم علامات دالة على قرب قيام الساعة، حتى يكون ذلك باعثاً لهم على العمل الصالح، وتقوى الله، واجتناب محارمه، فكلما رأوا علامة من علاماتها قد تحققت ازداد خوفهم من الساعة وأهوالها، وازداد يقينهم بقربها، فيزداد استعدادهم لذلك بالعمل الصالح .

قال الله تعالى : (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا) أي علاماتها.

ويدل على ذلك ما رواه مسلم أن النبي ﷺ قال : (بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سِتًّا : طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوْ الدُّخَانَ، أَوْ الدَّجَّالَ، أَوْ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ) . رواه مسلم

أي: سابقوا ست آيات دالة على وجود القيامة، وسارعوا بالأعمال الصالحة قبل وقوعها وحلولها؛ فإن العمل بعد وقوعها وحلولها لا يقبل، ولا يعتبر .

وقوله ﷺ (أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ) وفي رواية بالتصغير (خُوَيْصة أحدكم) .

وهو ما يخص الإنسان دون غيره، وأراد به الموت، الذي يخصه، ويمنعه من العمل، إن لم يبادر به قبله. و"أَمْرَ الْعَامَّةِ" المراد به القيامة.

قال القاضي : أمرهم أن يبادروا بالأعمال قبل نزول هذه الآيات ؛ فإنها إذا نزلت أدهشت ، وأشغلت عن الأعمال ، أو سد عليهم باب التوبة ، وقبول العمل .

قال العلائي : مقصود هذه الأخبار الحث على البداءة بالأعمال قبل حلول الآجال واغتنام الأوقات قبل هجوم الآفات .

قال أبو عبد الله القرطبي رحمه الله تعالى: قال العلماء رحمهم الله تعالى: والحكمة في تقديم الأشراط ودلالة الناس عليها: تنبيه الناس من رقدتهم، وحثهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة، كي لا يُباغَتوا بالحول بينهم وبين تدارك الفوارط منهم، فينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة قد نظروا لأنفسهم، وانقطعوا عن الدنيا، واستعدوا للساعة الموعود بها . (التذكرة)

١١-إذا وقعت علامة من علامات الساعة الكبرى ، فإن باقي العلامات الأخرى على إثرها .

عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (خُروجُ الآياتِ بعضِها على أثرِ بعضٍ يتَتابَعنَ كما يتَتابَعُ الخَرَزُ في النظامِ) رواه ابن حبان .

قال الحافظ ابن حجر : وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك ، إذا انقطع تناثر الخرز بسرعة .